جامعة الأزهر
كلية أصول الدين بالقاهرة
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

أضواء على الاستشراق

الدكتور
محمد عبد العزيز محمد عوض
الأستاذ المساعد بقسم الدعوة
والثقافة الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وخاتم النبيين ورحمة الله للعالمين ، سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فقد احتلت قضية الاستشراق والمستشرقين أهمية خاصة بين قضايا الفكر المعاصر ، حيث شغلت أذهان كثير من العلماء والباحثين المسلمين محاولين كشف النقاب ، وإزاحة الستار عن كل ما يكتبه المستشرقون في مؤلفاتهم عن الإسلام ، على اعتبار انه الدين الوحيد من بين سائر الأديان الذي نال اهتمام المستشرقين ، والذي بذلوا فيه كثيراً من الجهد والعمل الدائب في سبيل دراسته ، حتى لا يكاد يجد المرء مجلة أو صحيفة أو كتاباً إلا ويجد فيها ذكراً أو إشارة إلى شيء عن الاستشراق أو ما يمت إليه من قريب أو بعيد ، وهذا أمر ليس بمستغرب ذلك أن : " الاستشراق في حقيقة الأمر كان ولا زال جزءاً لا يتجزأ من حقيقة المواجهة بين العالم الإسلامي والغرب ، بل يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول : عن الاستشراق إنه يمثل الخلفية الفكرية لهذه المواجهة "[١].

ومن ثم فلا يجوز التقليل من شأنه بالنظر إليه على أنه قضية منفصلة عن باقي دوائر هذه المواجهة . حيث كان للاستشراق من غير شك أكبر الأثر في صياغة التصورات الغربية الخاطئة عن الإسلام ، وفي تشكيل مواقف الغرب عموماً إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة ، ولا يزال الأوروبيون حتى اليوم يستقون معلوماتهم عن الإسلام من كتابات المهتمين في هذا المجال من مفكري الغرب ، وقد اختلف المستشرقون الذين كتبوا عن الإسلام في كل ما ألفوه وكتبوه ، وأصبح لزاماً على كل مسلم واعٍ أن يعني بهذه الكتابات أو يخضعها للبحث والدراسة والتمحيص حتى يبرز حقيقة الأغراض التي دفعت هؤلاء المستشرقين إلى الكتابة عن الإسلام ،

---

(١) انظر الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص١٣-١٥ ، د / محمود زقزوق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م ، كتاب الأمة ، دولة قطر ، بتصرف ، ، وانظر انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه ، ص ١١-١٢ ، محمد فتح الله الزيادي ، طبعة أولى ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، دار قتيبة للنشر والتوزيع ، بيروت.

ويرفع الشبهات التي يحاولون بها تشويه صورته ، أو دس الدسائس والأباطيل عليه (١) .

ولقد غلا البعض منا غلواً غير مستساغ في تمجيد أعمال المستشرقين بذكرهم ، والاحتجاج بكل ما يصدر عنهم من آراء تحتمل الخطأ والصواب ، ويتقلدونها ويدافعون عنها ، ويجعلون ما يصدر عنهم من آراء تحتمل الخطأ والصواب المرجعية التي لابد منها ، ويتقلدونها ويدافعون عنها ، ويجعلون أقوالهم فوق كل الأقوال ، وينقلونها عنهم نقلاً أعمى ، ويعتبرونها من المسلّمات الثابتة لديهم . إذ رأوهم أتقنوا صناعة من الصناعات ، صناعة تصحيح الكتب وتحقيقها فظنوا أنهم قد بلغوا فيما اشتغلوا به من علوم الإسلام الغاية ، وأنهم اهتدوا إلى ما لم يهتد إليه أحد من علماء الإسلام وباحثيه حتى في علوم الدين والشريعة (٢) .

وفي مقابل هذا الاتجاه المفرط في الثقة ببحوث المستشرقين – اتجاه آخر – يحمل على المستشرقين واتجاهاتهم المغرضة والمفرطة في التعصب ، ويمثله قول بعض العلماء المعاصرين : " إن هؤلاء الأساتيذ (يعني المستشرقين) لم يأخذوا العلم عن شيوخه ، وإنما تطفلوا عليه تطفلاً ، وتوثبوا عليه توثباً ، ومن تخرج فيه بشيء فإنما تخرج على القسس ثم أدخل رأسه في أضغاث أحلام ، وتوهم أنه يعرف شيئاً وهو يجهله ، وكل منهم إذا درس في إحدى لغات الشرق أو ترجم منها شيئاً تراه يخبط فيه خبط عشواء . فما اشتبه عليه منها رقعها من عنده بما شاء ، وما كان منها بين الشبهة واليقين حدس فيه وخمن ورجع منه المرجوح وفضل المفضول " (٣) .

ولقد حاول بعض المستشرقين بدافع من الإنصاف والاعتدال المزعوم غرس الثقة لدى بعض الناس – خداعاً وتمويهاً

(١) انظر : المستشرقون ومشكلات الحضارة ، ص ٣-٤ ، د / عفاف صبرة ، طبعة ١٩٨٠م ، دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة .

(٢) انظر الاستشراق والدراسات الإسلامية ، ص ٦٣ ، د / محمد علي إبراهيم النملة ، طبعة أولى ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م ، مكتبة التوبة ، الرياض ، السعودية .

(٣) انظر : الاستشراق والمستشرقون . ما لهم وما عليهم ، ص ١٦-١٧ ، د / مصطفى السباعي ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م ، دار الوراق بدمشق ، سوريا .

وتضليلاً – وهي طريقة عرف بها مستشرقو النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، والنصف الأول من القرن العشرين الميلاديين . فهم قد دأبوا في كل ما كتبوه عن الإسلام والمسلمين واللغة العربية ، والحضارة الإسلامية – دأبوا على بعث الثقة المتناهية في نفس القارئ المسلم . بالظهور أمامه في مظهر الباحث المدقق ، والدارس المنصف الراغب في إثراء المعرفة الإنسانية ، والمحقق الواعي للحفاظ على التراث الحضاري والإنساني، وذلك بهدف الوصول إلى تشويه الحقائق الناصعة في الفكر الإسلامي .

صحيح أن البعض من المستشرقين قال كلمة الحق ، ولكن هؤلاء كانوا كصوت خافت وسط عاصفة عاتية . فلم يكن لموضوعيتهم وصدقهم من أنفسهم تأثير ذو بال ، وظل التيار الاستشراقي في غثائه مندفعاً حتى الآن نحو غايته الفاسدة (١) ، ولم يعد فيما بعد يقوم على النيات الطيبة وحدها ، ولكن أصبح مزيجاً من الحق والباطل ، وإن كان الباطل من القلة والضآلة بحيث لا يعبأ به بإزاء الحق الثابت إلا أن غالبية المستشرقين تراهم يدسون في كتابتهم عن الإسلام السم في العسل ويحترسون في ذلك . فلا يزيد عن المقدار المحدد لديهم . حتى لا يستوحش القارئ ، ولا يثير حفيظته ضدهم ، ولا يضعف ثقته بتراهاتهم المزعومة . وإن أمثال هذه الكتابات لهي أشد خطراً على القارئ المسلم من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون العداء ، ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء .

وعلى أية حال : فنحن لا ننكر أن عدداً من المستشرقين ممن شمله العطف الإلهي خلال عمله الاستشراقي واهتدى إلى نور الإسلام فلم يدس ولم يحرف ، وورد شرعة الدين الحنيف بتوفيق من ربه ولكنهم قليلون . وقد تكشفت بصائرهم خلال أعمالهم الدراسية ، وتغلب نور الإيمان على ظلام التحريف والتضليل فصدرت منهم دراسات واعترافات تمثل واقع الإسلام الصحيح في جميع مناحي الحياة ، ونفت عن التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية جميع الأكاذيب والأباطيل التي حرص عليها المستشرقون المتعصبون وأتباعهم،ولكن الجهود الاستشراقية قلما خلت عن النيل من الإسلام وتاريخه الناصع

(١) انظر : انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه ، ص ١١-١٢ ، مرجع سابق .

قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

وإذا كان هذا الموضوع قد تعرض لدراسات مستفيضة وجهود مخلصة من قبل علماء الإسلام كل في مجال تخصصه ، حيث لم يألوا جهداً ، ولم يدخروا وسعاً في سبيل نقض طعون المستشرقين حول الإسلام والرد عليها ، فقد كان من واجبي الدعوي أن أدلي بدلوي ، وأن أسير على نفس الدرب ، فليس هناك من بديل سوى مواجهة هذا الاستشراق مواجهة علمية منصفة وطرحه على بساط البحث ، ودراسته دراسة متخصصة ، حيث إن المستشرقين لم يتوقفوا عن كتاباتهم ، ولم تتغير أهدافهم ومصالحهم، والحملة على الإسلام لا تزال مستمرة في أيامنا هذه التي سادت فيها الحضارة المادية والفلسفات الإلحادية ، فما أحوجنا في مثل هذه الظروف الصعبة إلى مثل هذه الدراسات من أي وقت مضى .

وهكذا نجد أن موضوع الاستشراق لا يزال يفرض نفسه علينا بإلحاح ، ويتطلب منا وقفات تأملية جادة لبحثه ودراسة أبعاده وتأثيراته على العالم كله(٢)

ونظراً لأهمية الكتابة عن هذه الموضوعات ، وضرورة معالجتها بالمنهج العلمي السليم . فقد استخرت الله تعالى على أن يكون موضوع بحثي هذا تحت عنوان : [أضواء على الاستشراق] .

وهي مجرد محاولة علمية متواضعة لإحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، مع الأخذ في الاعتبار أن الإسلام بوصفه دين الله الحق لن يخشى عليه من أية تيارات فكرية مناوئة أيا كان مصدرها ، وأيا كان شأنها وقوتها ، لأن الإسلام باق ما بقيت السماوات والأرض بحفظ الله له ، وبما فيه من مقومات جعلته صالحاً لكل زمان ومكان سواء فهمناه أو لم نفهمه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(٣) .

(١) سورة التوبة : ٣٢-٣٣،وسورة الصف : ٨-٩ .

(٢) انظر الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص١٤ ، د / محمود زقزوق ، وانظر المستشرقون ومشكلات الحضارة ، ص ٤ ، عفاف صبرة ، مرجع سابق .

(٣) سورة الحجر : ٩ .

وكان من بين الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع ما يلي :

أولا : محاولة تصويب بعض الأخطاء التي وقع فيها بعض المستشرقين الذين عالجوا موضوعات الفكر الإسلامي . فأساءوا تقديمها لقرائهم ، وحرفوا مقولاتها وشوهوا صورها عن قصد مبيت حينا ، وعن جهل وسوء فهم أحايين أخرى ، فكان من الواجب والأمانة العلمية التصدي للمناهج التي انطلقوا منها ، مناقشة النتائج التي انتهوا إليها ، والرد عليها وتصويبها بما تقتضيه الموضوعية والنزاهة ، وروح البحث المنهجي العلمي التي لابد منها في الدراسات الإسلامية .

ثانيا : توجيه اهتمام الباحثين والدارسين المعاصرين من المسلمين إلى خطورة الأسس التي قامت عليها مناهج المستشرقين ، وعدم الانبهار بها ، وإلى النتائج الخطيرة التي تمخضت عنها من : تشكيك في العقيدة ، وإنكار للنبوة والفتراء على التاريخ وتزييف للحقائق لمساعدتهم على الوعي بما تنطوي عليه من مزالق ومحاذير مبطنة بالتجرد والموضوعية التي يدعيها بعض هؤلاء المستشرقين (١)

ولهذين السببين وغيرهما رأيت من واجبي أن أتقدم بهذا البحث المتواضع بعد أن تأكدت رغبتي وحاجتي الملحة إلى الكتابة عنه . مع العلم بأنني لست بأول من يتناوله بالبحث والدراسة ، ولكن سبقني إليه علماء أجلاء ، وأساتذة فضلاء ، لهم مكانتهم في الدعوة إلى الله علماً وعملاً فإن وفقت فذلك من فضل الله وحده ، والله ذو الفضل العظيم ، وإن أخطأت أو قصرت فذلك من نفسي ومن الشيطان ، وحسبي أنني بشر يخطئ ويصيب .والكمال المطلق لله تعالى وحده.

قال تعالى : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٢) .

دكتور
محمد عبد العزيز محمد عوض
كلية أصول الدين بالقاهرة
جامعة الأزهر

(١) انظر: مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية ، جـ١ ، ص ٩-١٠ ، طبع ونشر مكتبة التربية العربي لدول الخليج ، طبعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، الرياض ، السعودية .

(٢) سورة هود : ٨٨ .

التمهيد

تحديد المفاهيم والمصطلحات

مما لا شك فيه أن محاولة تحديد المفاهيم والمصطلحات العلمية لأي موضوع من الموضوعات من الأهمية بمكان لأنها في الحقيقة مما يعين الباحث والقارئ معاً على فهم واستيعاب أبعاد الموضوع المزمع دراسته ، ولما كان الموضوع الذي سأتناوله في هذا البحث : [أضواء على الاستشراق] رأيت من تمام الفائدة ، والالتزام بالأمانة العلمية أن استهله بتحديد مفهوم كلمة الاستشراق أولاً ثم أتبعه بعد ذلك بتحديد المفهوم العام لكلمة المستشرقين . وذلك على النحو التالي :

أولاً : معنى الاستشراق :

يجدر بنا بادئ ذي بدء أن نتعرف على المعنى اللغوي للاستشراق ، وعلى المادة التي اشتقت منها الكلمة فنقول وبالله التوفيق :

(أ) معنى الاستشراق لغة :

تكاد المعاجم اللغوية تجمع على أن كلمة الاستشراق مشتقة من الشرق ، وهي في الأصل اللغوي مصدر للفعل (استشرق) زيدت فيه حروف : الألف والسين والتاء من حروف الطلب فأضيفت إلى الفعل الثلاثي (شرق) وهي تعني : مشرق الشمس ، أو ناحية الشرق ، ومن ثم تدل الكلمة على الاهتمام بما يحتويه الشرق الإسلامي من علوم ومعارف وسمات حضارية متنوعة ، قال ابن فارس : " شرق : الشين والراء والقاف : أصل واحد يدل على إضاءة وفتح ، ومن ذلك : شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت ، والشرق : المشرق " (١) ، وقال صاحب معجم متن اللغة : " استشرق : يعني طلب علوم المشرق ولغاتهم " (٢) ، من هذه المعاني اللغوية يتبين أن المدلول اللغوي لكلمة الاستشراق يتلخص في طلب دراسة علوم الشرق ولغاته وآدابه .

(ب) الاستشراق في الاصطلاح الغربي :

عرّف كثير من الغربيين الاستشراق بعدة تعريفات تارة من حيث الموضوعات، والأساليب التي يسلكها في

(١) معجم مقاييس اللغة ، جـ٣ ، ٢٦٤ مادة شرق ، ولسان العرب لابن منظور ، جـ٣ ، ٣٠٤-٣٠٦ ، والمفردات ، ص ٤٥ ، للراغب الأصفهاني مادة شرق .

(٢) معجم متن اللغة ،جـ٣ / ٣١١ ، أحمد رضا، بتصرف يسير

دراساته عن الإسلام، وتارة من حيث أهدافه وغاياته ، أو ارتباطاته الدينية والسياسية، ومن أبرز هذه التعريفات :

١ - ما ذكره المستشرق الألماني " رودى بارت " بقوله : (الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي (١))

ولعله يقصد بذلك اهتمام معظم علماء الغرب بدراسة كل ما يتعلق بالشرق الإسلامي من علوم ولغات وآداب وتاريخ وحضارة .

٢ - وقريب من هذا التعريف ما ذكره البعض الآخر : " بأنه ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي شملت حضارته وأديانه، وآدابه ولغاته وثقافته، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي معبراً عن خلفية المواجهة بينهما " (٢) .

٣ - وعرفه إدوارد سعيد بقوله : الاستشراق أسلوب في الفكر قائم على التمييز بين الشرق والغرب في معظم الأحيان " (٣) وهو بهذا المعنى يشير إلى النزعة العنصرية التي قامت عليها حركة الاستشراق، والتي يتعامل الغرب من خلالها مع الشرق الإسلامي بصفة عامة .

جـ - الاستشراق في الاصطلاح الإسلامي :

تعددت وتنوعت وجهات نظر العلماء والباحثين المسلمين حول تحديد المفهوم الاصطلاحي لكلمة " الاستشراق " ومع تعددها وتنوعها فكلها تكاد تتفق في مضمونها العام حول معنى واحد ، ولعله من المفيد هنا أن أعرض بشيء من الإيجاز لبعض هذه التعريفات حتى تتبين لنا حقيقة مفهوم الاستشراق الذي لا يزال يعمل في شق أنحاء العالم على تشوية صورة الإسلام – وذلك على النحو التالي :

(١) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص ١١ ، ترجمة : مصطفى ماهر ، طبعة دار الكتاب العربي بالقاهرة ، نقلا عن : رؤية إسلامية للاستشراق ص ٥ ، د أحمد عبد الحميد غراب .

(٢) الدراسات العربية والإسلامية في أوربا ص١٧، ميشال جحا، وانظر الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣٣ ، طبعة ثانية ١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٩م ، الرياض بتصرف .

(٣) كتاب الاستشراق ص ٣٨ ، ترجمة : كمال أبو ديب ، طبعة ثانية ١٩٨٤م ، عن مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت .

١ – فمن العلماء من عرف الاستشراق في مفهومه الخاص : " بتلك الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام [١] وهذا المعنى هو الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي والإسلامي – كما يرى الدكتور / محمود زقزوق – عندما يطلق لفظ الاستشراق أو المستشرقون، وهو الشائع أيضاً في كتابات المستشرقين الغربيين.

٢ – ومنهم من عرَّفه بأنه عبارة عن " دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون كافرون من أهل الكتاب خاصة للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب كالبحث في العقيدة والشريعة والثقافة والحضارة والتاريخ بهدف تشويه الإسلام ، والتشكيك فيه " [٢]

٣ – وعرفه آخر بقوله : إن الاستشراق نوع من الإسقاط الغربي على الشرق، وإدارة حكم الغرب للشرق، ويعني بالإسقاط هنا تلك العملية النفسية التي يخلع المرء من خلالها كل تصوراته وعواطفه على الآخرين ، أو على أي موضوع من الموضوعات، وهذا في الواقع هو ما ينطق تمام الانطباق على معظم مناهج المستشرقين المتعصبين ضد الإسلام [٣]

٤ – وجاء في الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة تعريفاً آخر للاستشراق ، يكاد يكون قريباً في المعنى من التعريفات السابقة " وهو أن الاستشراق عبارة عن التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته، مما أدى بهذا التيار إلى وضع صياغة معينة للتصورات الغربية عن العالم الإسلامي [٤] أ.هـ

٥ – وهناك تعريف آخر للاستشراق – يبدو أن " ادوارد سعيد " يفضله وهو : أن الاستشراق أسلوب غربي للهيمنة على الشرق، وإعادة صياغته وتشكيله : (فكرياً وسياسياً) وممارسة السلطة عليه " [١] .

(١) الاستشراق الخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص ١٨ ، د / زقزوق .

(٢) انظر : رؤية إسلامية للاستشراق ص ٧ ، د / أحمد عبد الحميد غراب ، باختصار .

(٣) انظر : الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين ص ١٥ ، د / شوقي أبو خليل طبعة أولى ١٩٩٥م ، نشر دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان .

(٤) الموسوعة الميسرة في الأديان ص ٣٣ ، طبعة ثانية ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩م ، إصدار الندوة العالمية للشباب المسلم ، الرياض ، السعودية

ثانياً : معنى المستشرقين :

أ – المستشرقون في الاصطلاح الغربي :

تعرض كثير من الباحثين الغربيين لتحديد مفهوم " المستشرقين " . فذكروا عدة تعريفات لهذا المصطلح تكاد تتفق في مضمونها العام مع بعض الاختلافات اليسيرة في التفصيلات –فمن ذلكم مثلاً:

١ – ما جاء في قاموس أكسفورد من أن " المستشرق هو كل من تبحر في لغات الشرق وآدابه " وإن كان لنا تحفظ شديد على تلك الصياغة الواردة في هذا القاموس، وهو أننا لا نسلم بصحة وصف أي مستشرق بالتبحر أو التعمق في دراسة علوم الشرق الإسلامي، فالتبحر لا يمكن أن يتحقق إلا للعالم المسلم الدارس لدينه عن عقيدة صادقة .

٢ – وعرف (أنجلو جويدي) المستشرق بأنه : " من جمع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق، وبين الوقوف على القوة الروحية الأدبية التي أثرت على تكوين الثقافة الإنسانية [٢].

٣ – وعرف (ديتريش) المستشرق بقوله : " ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه، ولن يتأتى له الوصول إلى نتائج سليمة في هذا المضمار ما لم يتقن لغات الشرق " [٣] .

٤ – ويعرف إدوارد سعيد كلمة المستشرق بقوله : " كل من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه أو بحثه في جوانبه المتعددة والعامة على حد سواء – كل من يؤدى هذه المهمة يسمى مستشرقاً، وما يقوم به يسمى استشراقاً"[٤] أ.هـ

هذه بإيجاز هي بعض أنواع التعريفات التي تصورها بعض العلماء المهتمين بدراسة الاستشراق من الغربيين، وكلها كما رأينا تلتقي على معنى واحد لا تتجاوزه .

(١) كتاب الاستشراق ص ٣ ، ٢٥ – ٢٦ ، لإدوارد سعيد ، بتصرف يسير .

(٢) علم الشرق وتاريخ العمران، نقلاً عن فلسفة الاستشراق ص ٢٤ ، د / أحمد سمايلوفتش

(٣) الدراسات العربية في ألمانيا – نقلا عن فلسفة الاستشراق ص ٢٥ ، د / أحمد سمايلوفتش

(٤) الاستشراق ص ٣٨ ، إدوارد سعيد .

ب – المستشرقون في الاصطلاح الإسلامي :

يقتضينا البحث هنا أن نعرض بشيء من الإيجاز أيضاً – لمعنى المستشرقين لدى بعض علماء الإسلام – المهتمين بدراسة الاستشراق حتى تتضح لنا الرؤية الصحيحة – لتحديد المفهوم الاصطلاحي للمستشرقين وذلك على النحو التالي :

١ – فمن العلماء من عرف المستشرقين بأنهم : " عبارة عن الكُتّاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي ، وعن الحضارة الإسلامية، وأنهم يمثلون مجموعة من الطوائف الأجانب غير المسلمين ممن وفدوا على الشرق في فترات مختلفة من الأزمنة الحديثة، وتعلموا اللغة العربية، وحاولوا التعمق فيها، وتخصصوا في دراسات لغات الشرق، واهتموا بالبحث في دياناته وتواريخه، وعاداته وعلومه وثقافاته " (١).

٢ – ومنهم من أطلق كلمة " المستشرق " بالمعنى العام على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله (أقصاه ووسطه وأدناه) في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه " (٢).

٣ – ويعرف آخرون المستشرق بأنه : " كل عالم غربي يهتم بالدراسات الشرقية، ولا بد أن ينتمي هذا العالم إلى الغرب، ولو كان هذا العالم يابانياً أو اندونيسياً أو هندياً – لما استحق أن يوصف بالمستشرق لأنه شرقي بحكم مولده، وبيئته وحضارته، وقد تكون الدراسات الشرقية التي يقوم بها هذا المستشرق تاريخاً أو فلسفة أو آثاراً أو اقتصاداً، ولكنها على أية حال ترتبط بالشرق " (٣) أ. هـ.

وبهذا تتضح حقيقة مفهوم المستشرقين في ضوء المفاهيم والتعريفات التي بينها علماء الإسلام، والتي التقت كلها على اهتمام الغربيين بدراسة علوم الشرق الإسلامي لا بهدف البحث العلمي الخالص، ولكن بهدف الطعن في الإسلام وتشويه صورته .

ولم يكن هؤلاء المستشرقين المهتمين بدراسة الإسلام من الغربيين منتمين أو

(١) انظر إنتاج المستشرقين وأثره على الفكر الإسلامي ص ٥، للأستاذ مالك بن نبي ، باختصار.

(٢) انظر : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ص ١٨ ، د / محمود زقزوق ، بتصرف.

(٣) راجع : المستشرقون والتاريخ الإسلامي ، د/ علي حسن الخربوطلي ، باختصار .

تابعين لديانة معينة من الديانات السابقة بل شكلوا نسيجاً متنوعاً من أديان عديدة. فانضم إليهم عدداً من المسيحيين واليهود واللادينيين، وبعض هؤلاء المستشرقين عاش في بلده ، وبعضهم عاش في الشام ولم تقتصر عليهم البلاد العربية بل نزحوا إلى مختلف البلدان الإسلامية، وتعلموا لغة أهلها إلى جانب العربية.

ولم يكن هؤلاء المستشرقين على درجة واحدة من الإخلاص في البحث العلمي، والوصول إلى نتائج مجردة عن الهوى والزيغ : " فمع أنهم تزيوا بعباءة العلم ، وأظهروا الولاء والإخلاص للبحث والتقصي إلا أن كثيرين منه قد طعنوا في كرامة العلم ،وجعلوا منهم أداة أو وسيلة لأغراضهم الخبيثة، ومخططاتهم الماكرة – التي لا هدف لها إلا محاولة هدم الإسلام ، والتشكيك في مقدساته مبادئه"(١) .

ومن ثم فقد حاول المستشرقون أن يحققوا أهدافهم بكل ما أوتوا من قوة، وبكل الوسائل الممكنة لديهم : " فألفوا الكتب في شتى مجالات الفكر الإسلامي ، ولم يدخروا وسعاً في إلقاء المحاضرات والدروس، وبشروا بالمسيحية (المحرفة طبعاً) بين المسلمين، وجمعوا الأموال ، وأنشأوا الجمعيات العلمية الاستشراقية، وعقدوا المؤتمرات وأصدروا الصحف"(٢) التي تتبارى في الإساءة إلى الإسلام، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم – بواسطة الأقلام المأجورة من مستشرقي الغرب كما هو حاصل الآن في بعض الصحف الأوربية .

والخلاصة :

أنهم سلكوا كل مسلك ظنوه محققاً لأهدافهم في سبيل الطعن في الإسلام ، وإشاعة المفاهيم الخاطئة عنه . مما لا يستطيع أن يجهله كل من اطلع على بحوثهم في شتى مجالات الفكر الإسلامي .

قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

(١) انظر كتاب : الإسلامية والقوى المضادة ص ١١٨ ، د / نجيب الكيلاني ، وانظر : نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص ١٤٠ ، د / عمر سليمان الأشقر ، الطبعة الثانية عشر ، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢ م ، كلية الشريعة ، جامعة الكويت ، بتصرف .

(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص ٤٧٤ ، د / محمد البهي ، الطبعة الثامنة مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٧٥م ، بتصرف يسير .

(٣) سورة يوسف : ٢١ .

المبحث الأول
الاستشراق بين الازدهار والانقراض

هناك مقولة تتردد على ألسنة وأقلام بعض الكتّاب والباحثين المعاصرين تزعم أن الاستشراق قد استنفد أغراضه ، ولم يعد له أدنى تأثير أو خطورة على المسلمين، وأنه في طريقه إلى الانقراض [1] والزوال ، وهذا في الحقيقة يمثل إدعاء لا يمكن قبوله أو التسليم به ، لأن الاستشراق في الوقت الحاضر قد أصبح له مؤسسات وهيئات دولية تعني بتدريسه وحمايته . مما دفع بعض الباحثين إلى طرح هذه التساؤلات حول مستقبل حركة الاستشراق ، والتي أراها في غاية الأهمية لإبطال هذه المفاهيم الخاطئة ، والتي تصورها بعض الكتاب المعاصرين ، فيخدعون بها بعض المسلمين من حيث لا يشعرون ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فيقول :

" هل لا يزال الاستشراق يعيش عصر ازدهاره ؟ أو أن نجمه بدأ يأفل ، وتأثيره بدأ يضعف ، ونشاطه بدأ يتضائل ؟ وخاصة بعد أن انحسر المد الاستعماري عن العالم الإسلامي ؟ وإلى أين يقف الاستشراق اليوم في العصر الحاضر ؟ وما هو موقف الدول الأوروبية اليوم من عملية الدعم المادي والمعنوي للعمل الاستشراقي ، وهل انتهى الاستشراق حقاً " [2] .

إن طرح هذه الأسئلة له ما يبرره : فهناك بالفعل العديد من وجهات النظر التي تتحدث عن نهاية الاستشراق ، وهناك من ناحية أخرى انتقادات واتهامات كثيرة موجهة إلى الاستشراق من مصادر عديدة ، وإن اختلفت منطلقاتها . فمثلاً يقول أحد الألمان : " لقد آن الأوان كي يبتعد المستشرقون باهتماماتهم عن اللهجات العربية ويعدوا أنفسهم لتقبل الدور الجديد كطاقة فاعلة في خدمة العلوم الاجتماعية " [3] .

(1) انظر الاستشراق المعاصر في منظور الإسلام ، ص ١٢ ، د / مازن بن صلاح مطبقاني ، طبعة أولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م ، دار اشبيليا للنشر والتوزيع ، الرياض ، السعودية ، بتصرف .

(2) انظر : الاستشراق والخلفية الفكرية ، ص ٥١-٥٢ ، د / محمود زقزوق ، مرجع سابق .
وانظر : الاستشراق المعاصر في منظور الإسلام ، ص ١١ ، د / مازن مطبقاني .

(3) الاستشراق والخلفية الفكرية ، ص ٥١ ، مرجع سابق .

أما ما يتعلق بمسألة الحديث عن قرب نهاية الاستشراق . فلست أظن أن مثل هذه النهاية المزعومة وشيكة أو ممكنة الحدوث . لأنها ليست بهذه البساطة ، ولا يمكن القول بأن الحركة الاستشراقية في صورها المعادية للإسلام ، بدأت تنحسر أنها تعيش آخر أيامها . بل لا تزال الحركة متماسكة وقوية ومنظمة ، ولا تزال جمعيات المستشرقين ومؤتمراتهم المختلفة تجري على قدم وساق ، وتواصل الليل بالنهار في ممارسة نشاطاتها المتعددة" [1] .

ولقد صرح بعض العلماء المعاصرين بهذه الحقيقة في قوله : " بأن الاستشراق لم يستنفد أغراضه بعد . فما زال قائماً ، وما زالت مئات الدوريات العلمية تصدر عنه ، وما زالت المطابع في أوروبا تدفع إلى الأسواق مئات بل ألوف الكتب كل عام من تأليف الباحثين الغربيين عن الإسلام وحضارته " [2] .

إن قضية الحديث عن نهاية الاستشراق ليست وليدة اليوم بل تعود إلى فترة أقدم مما نتصور في بحثنا هذا – فقد عقد المستشرقون مؤتمرهم الاستشراقي العالمي تحت رعاية المنظمة الدولية في مدينة باريس عام ١٩٧٣م ، بمناسبة مرور مائة عام على بداية عقد المستشرقين لمؤتمراتهم العالمية ، والتي كانت تعقد كل ثلاث أو خمس سنوات ، وفي هذا المؤتمر دار نقاش وتصويت بين المستشرقين على تغيير الاسم ، وتسمية الجمعية باسم جديد هو " المؤتمر العالمي للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال أفريقيا " [3] .

إذن فالقول بنهاية الاستشراق لا يدّعيه إلا كل من ليس له اطلاع على أقسام الدراسات العربية وأقسام دراسات الشرق الأدنى والأوسط ، أو مراكز البحوث والمعاهد المتخصصة ، أو معاهد البحوث الإستراتيجية أو معاهد البحوث حول الشئون الدولية ، وأما من له اطلاع ولو قليلاً حول هذه المراكز

(1) المرجع السابق ، ص ٥٢ ، بتصرف يسير .

(2) انظر : موقف الاستشراق من السيرة والسنة النبوية ، د / أكرم ضياء العمري ، طبعة ١٤١٧هـ - ١٩٩٨م مراكز الدراسات والإعلام ، دار إشبيليا ، الرياض .

(3) انظر الاستشراق المعاصر في منظور الإسلام ، ص ١٢-١٣ ، مرجع سابق .

والأقسام – فسوف يدرك تمام الإدراك أن الاستشراق في صورته الراهنة لا يزال مستمراً ومتواصلاً ، وأن القوم لم تنقطع صلتهم بالحركة الاستشراقية ، بل هناك من الدلائل الثابتة على أنهم لا يزالون ينطلقون في دراساتهم عن الإسلام في شتى المجالات مستندين إلى الجهود الاستشراقية لأسلافهم السابقين من أمثال: جولد زيهر (١) ، وشاخت (٢) ، وبيكر ونولدكه وتوماس أرنولد وغيرهم .

وقد يكون الاسم قد تغير ، ودخل إلى مجالات الدراسات الاستشراقية باحثون لا يتصفون بالصفات أو المؤهلات التي كانت للمستشرقين القدامى ولكن العمل في البحث في كل قضايا المسلمين ما زال قائماً ، وإن تغيرت بعض مناهج الدراسات أو أساليبها أو طريقة عرضها " (٣) . ولا تزال معاهد الاستشراق منتشرة اليوم في اغلب الجامعات الأوروبية . هذا فضلاً عن تغلغل معظم المصالح الغربية في بلدان العالم الإسلامي – الأمر – الذي يجعل هذه المصالح تساند إلى حد كبير الحركة الاستشراقية والتي تقدم بدورها للجهات المعنية في الغرب الدراسات المختلفة عن العالم الإسلامي ، وهذا كله يعني إثراء الدراسات الاستشراقية وازدهارها لا

---

(١) وهو مستشرق مجري ، ولد في سنة ١٨٥٠م ، وتوفي في سنة ١٩٢١م ، عرف بعدائه الشديد إسلام ، وبخطورة كتاباته عنه ، ومن محرري دائرة ارف الإسلامية " ومن أشهر آثاره ومؤلفاته : تاب " العقيدة والشريعة في الإسلام " ، طبعة ١٩٢٠م ، نقله إلى العربية الدكتور / محمد يوسف موسى والأستاذ عبد العزيز عبد الحق ، وله أيضاً كتاب " تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي المترجم إلى العربية " انظر المستشرقون جـ٣ ، ٤٠- ٤٢ ، العقيقي باختصار ، وانظر الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار ، ص ٤٩٠ ، د / البهي ، وانظر الاستشراق والمستشرقون ، ص ٤١ ، د / مصطفى السباعي .

(٢) وهو مستشرق ألماني متعصب ضد الإسلام ، ولد في سنة ١٩٠٢م ، وتوفي في سنة ١٩٦٩م ، ومن آثاره ومؤلفاته : نشأة الفقه الإسلامي بالإنجليزية ، وآخر في خلاصة تاريخ الفقه الإسلامي ، ومن محرري دائرة المعارف الإسلامية ، ودائرة المعارف والعلوم الاجتماعية ، ومن أشهر كتبه التي كتبها عن الإسلام " أصول الفقه الإسلامي ، وغيرها من الكتب والمؤلفات أ.هـ . انظر : المستشرقون جـ٢ ، ص ٤٦٩-٤٧١ ، وانظر الفكر الإسلامي ، ص ٤٩٤ ، د / البهي .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣ ، بتصرف يسير .

القضاء عليها ، وما دام الأمر كذلك فإن الحاجة إلى الاستشراق في الغرب ستظل قائمة بل وستزداد إلحاحاً " (١) . وهذا مما لا يختلف عليه كل من عنده أدنى إلمام بأعمال ومؤلفات المستشرقين القدامى والمعاصرين ، " ومن ثم فإن الاستشراق لم يزل يعمل على الرغم من بعض التصريحات التي أدلى بها عدد غير قليل من المستشرقين من أنه قد انتهى زمن الاستشراق " (٢) .

الاستشراق في العصر الحديث :

يحاول البعض أمام التحدي الاستشراقي الغربي المخطط ضد الإسلام يحاول الدفاع عن المستشرقين بوجه عام ، وعن المستشرقين في العصر الحديث بوجه خاص ، مظهراً هؤلاء في صورة مختلفة عن صورة أسلافهم من مستشرقي العصور الوسطى وعصر النهضة ، ويزعم هذا البعض : أن المستشرقين في العصر الحديث – قد تخلوا إلى حد كبير – عن ذلك الموقف القديم الذي كان يتسم بالتعصب والعداء ، والذي كان يقصد الإسلام دائماً بالتشويه والطعن ، وأنهم قد اتخذوا موقفاً آخر جديداً من الإسلام يتمثل في موقف الدارسين الموضوعين الأمناء إن لم يكن موقف المتعاطفين الأصدقاء ، هذا هو عين ما يحاول به البعض من خلاله تحسين صورة الاستشراق والمستشرقين (٣) .

ولكن للأسف الشديد فإن الواقع يكذب ذلك : فها هو أحد الكتاب المعاصرين في كتابه (الاستشراق) يرد تلك المزاعم التي أثارها البعض عن الاستشراق المعاصر فيؤكد " أن الصورة المشوهة للإسلام وللعرب ما زالت مستمرة في الدراسات الاستشراقية وفي وسائل الإعلام في الغرب بوجه عام ، وفي أمريكا بوجه خاص وقد استشهد على ذلك بأمثلة كثيرة حفل بها كتابه ، وانتهى إلى التأكيد على انه ما زالت تنشر الكتب والمقالات باستمرار عن الإسلام والعرب ، وهي لا تختلف إطلاقاً

---

(١) السابق ، ص ٥٥ ، د / زقزوق .

(٢) انظر الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين ، ص ٦ ، د / شوقي أبو خليل ، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، بتصرف .

(٣) انظر : رؤيا إسلامية للاستشراق ، ص ٣٧ ، د / أحمد غراب ، بتصرف .

عن الجدل الخبيث المعادي للإسلام في القرون الوسطى وعصر النهضة " (١)

إن الدراسة الموضوعية المتأنية لكتابات المستشرقين في العصر الحديث منذ القرن التاسع عشر الميلادي حتى اليوم لتؤكد هذه الحقيقة وهي : أن موقفهم لم يتغير في جوهره عن موقف أسلافهم وخاصة موقفهم من الرسول ﷺ والقرآن الكريم ولتأكيد هذه الحقيقة يحسن بنا أن نذكر بعض الأمثلة على ذلك فيما يلي :

فالمستشرق (تيودور نولدكه) (٢) ، في كتابه عن تاريخ القرآن : يزعم أن محمداً ﷺ – كانت تنتابه – والعياذ بالله نوبات عنيفة من الانفعال جعلته يظن أنه تحت تأثير إلهي . أي يظن أنه يتلقى وحياً ، ونجد المستشرق (وليم موير) (٣) في كتابه عن حياة محمد يتحدث عن موقفه من الإسلام ورسوله فيقول : " إن سيف محمد والقرآن هما ألد الأشياء عداوة للحضارة والحرية والحق مما لم يعرفه العالم حتى الآن " (٤) .

ونجد مستشرقاً آخر وهو (صموئيل مرجليوث) في كتابه عن (محمد النبي

---

(١)المرجع السابق ، ص ٣٧ ، نقلاً عن كتاب الاستشراق ، ص ٢٨ ، د / ادوارد سعيد ، ترجمة كمال أبو أديب ، طبعة ١٩٨١م ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت .

(٢)مستشرق ألماني الجنسية ، ولد في هامبورج سنة ١٨٣٦م ، وتوفى سنة ١٩٣٠م ، تعلم اللغات السامية والفارسية والتركية ، ونال الدكتوراه في عام ١٨٥٦م ، ونال جائزة مجمع الكتابات والآداب في باريس على رسالته : (أصل وتركيب سور القرآن) ، وهو ألماني معروف بعدائه للإسلام ، له كتاب عن القرآن'ن وهو أصل رسالته للدكتوراه ، وكتاب آخر عن التاريخ الإسلامي ظهر بالإنجليزية " . أ . هـ . انظر : المستشرقون جـ٢ /٣٧٩-٣٨٢ ، العقيقي ، وانظر : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار ، ص ٤٨١ ، د / محمد البهي .

(٣)مستشرق اسكتلندي ، ولد في سنة ١٨١٩م ، وتوفى في سنة ١٩٠٥م ، تعلم الحقوق في جامعتي (جلاسجو وادنبرا) واختير رئيساً لجامعة أدنبرا (١٨٨٥ – ١٩٠٢م) ، ومن آثاره : سيرة النبي والتاريخ الإسلامي في أربعة أجزاء ، طبعة ١٨٥٦م ، وله كتاب : حوليات الخلافة صعودها وانحدارها وسقوطها في ٤٧٠ صفحة ، وله أيضاً : كتاب مصادر الإسلام في ١٠٢ صفحة ، طبعة لندن ١٩٠١م ، ودولة المماليك في مصر ، كما كتب عدة مقالات عن شعراء العرب " أ.هـ . وانظر : المستشرقون جـ٢ / ٥٩ . العقيقي ، باختصار .

(٤)رؤية إسلامية للاستشراق ، ص / ٣٨ .

ورجل الدولة) يزعم هو الآخر أن القرآن ليس وحياً وأنه يعتمد كثيراً على الأخذ من اليهودية والنصرانية " (١) .

ويتضح مما سبق : أن الاستشراق في جوهره – موقف عقائدي وفكري معاد للإسلام يقفه الكافرون بهذا الدين بوجه عام وبعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى بوجه خاص ، ولا شك أن هذا الموقف قد اكتسب وما زال يكتسب أبعاداً جديدة ، وصوراً خطيرة ، ولا سيما في جوانبه المتعددة منذ الحرب الصليبية حتى اليوم .

فهو في الحقيقة ليس بجديد على المستشرقين القدامى والمعاصرين – بل هو نفس الموقف الذي أعلنه الكافرون بالإسلام منذ ظهوره حتى وقتنا الحاضر ، وهو موقف الإنكار للرسالة ، والتكذيب بالرسول ﷺ ، وإثارة الشبهات الخاطئة عن الإسلام ، وعن القرآن والرسول ﷺ بوجه خاص – لتشكيك المسلمين في دينهم ، ومحاولة ردهم عنه ، وقد تختلف وسائل المشركين وأهل الكتاب في معارضتهم للدعوة عن وسائل إخوانهم من المستشرقين في العصر الحديث ، ولكنهم في النهاية يلتقون حول نفس الهدف والغاية ، وهو محاولة منع الخير وهو الإسلام عن المسلمين .

كما قال تعالى : ﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢) .

وكما قال سبحانه : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) .

وعلى أية حال فمهما زعم الزاعمون أن الاستشراق قد انتهى فإن الاهتمام الغربي بالعالم العربي الإسلامي لم يضعف ولم يتوقف ، وأنه ليس بسبيله إلى الانقراض كما ذكرت آنفاً ، وقد أكد هذه النتيجة أكثر من باحث غربي ، ومن هؤلاء (مكسيم رودنسون) (٤) الذي

---

(١)رؤية إسلامية للاستشراق ، ص ١١ ، د / أحمد غراب ، مرجع سابق ، بتصرف .

(٢)سورة البقرة : ١٠٥ .

(٣)سورة البقرة : ١٠٩ .

(٤)ولد مكسيم رودنسون في باريس عام ١٩١٥م وهو مستشرق فرنسي متعصب ضد الإسلام .

كتب يقول : " إن الدراسات المتركزة على شعوب وثقافات ومجتمعات المناطق العربية المشمولة سابقاً تحت اسم الشرق سوف تستمر ، وسوف يساهم فيها منذ الآن فصاعداً اختصاصيو البلدان أو المناطق المدروسة .. وسوف يتحقق التقدم يوما ما لا محالة حتى لو لم يكن ذلك إلا تحت تأثير تراكم المعلومات والمعطيات ، ولكن لا يمكن لأي شيء أن ينحى الباحثين كلياً من العراقيل والعقبات التي تواجه جهودهم أو تعرقلها " (١) ، وقد عاش الاستشراق عصر ازدهاره في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، والنصف الأول من القرن العشرين الميلادي وشهدت تلك الفترة عدداً غير قليل من المستشرقين المتعصبين في شتى المجالات ، وقد ظهرت اليوم أجيال جديدة تسير تدعم الحركة الاستشراقية في أوروبا . ولا تبخل عليها بالأموال اللازمة لاستمرار نشاطها " (٢) .

الملامح العامة للدراسات الاستشراقية :

دأب عدد غير قليل من المستشرقين في كل ما كتبوا عن الإسلام أن يعثوا الثقة في نفوس المسلمين بالظهور أمامهم بالموضوعية والإنصاف في البحث العلمي ، وما إلى ذلك من العبارات التي لا تنطوي على أية حقائق بل على مزاعم توافرت على دحضها الأدلة العلمية التي لا يختلف عليها كل من اطلع على دراسات المستشرقين عن الإسلام ، ولذلك نجد أن معظم مؤلفاتهم تتخذ من هذه الدعاوى منطلقاً لها ، ومن ثم كان لابد لنا من إلقاء نظرة سريعة على ملامح هذه الدراسات التي قدمها المستشرقون حول الإسلام ،وسوف نتأكد من خلالها أن غايتهم لم

صل على الدكتوراه في الآداب ، ثم على شهادة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية ، ومن آثاره : جهود فرنسا في الشرق ، والإسلام والرأسمالية ، ومن أهم دراساته : الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وتقويم الدراسات المحمدية ، والماركسية والإسلام ، والإسلام في نظر الغرب وفي دراساته ، وآثار الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوروبية في العصر الوسيط .... وغيرها . انظر : المستشرقون جـ١ ٣٥٩-٣٦١ ، نجيب العقيقي ، دار المعارف بالقاهرة .

(١)انظر : الاستشراق في منظور الإسلام ، ص ٣١ ، د / مازن مطبقاني ، بتصرف .

(٢)انظر : الاستشراق والخلفية الفكرية ، ص ٥٤، د / زقزوق بتصرف ، وانظر أيضاً : الاستشراق في الميزان ، ص ١٥٠-١٥١ ، د / منذر معاليقي، طبعة أولى ١٤١٨هـ -١٩٩٧م ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

تكن لخدمة العلم . أو حدمة التراث الإسلامي كما يزعمون .

ولكن الذي يهمنا هنا هو أن نتعرف على بعض الملامح والسمات التي تتسم بها الدراسات الاستشراقية في إطار بحثها عن الإسلام ، فمما لا شك فيه أن لهذه المناهج والدراسات الغربية ملامح وخصائص جوهرية تعتبر جزءاً لا يتجزأ من مفهوم الاستشراق ، ولا يتسع المجال لذكرها تفصيلاً وأكتفي هنا بالإشارة إلى بعضها كما يلي :

١- إنها دراسات تتسم بالرغبة الملحة في الطعن والتجريح ، والبحث عن نقاط الضعف والتشويه وتصيد الأخطاء : ومما يؤكد هذا المعنى أن أحد المستشرقين المعاصرين ويدعى (جاستون فييت) (١) عرض في كتابه " مجد الإسلام " تاريخ الإسلام عن طريق صفحات مختارة من أقوال المؤرخين والكتّاب المعاصرين لكل فترة من فترات هذا التاريخ ، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب ينضح بالحقد والطعن في الإسلام وتاريخه لأن هذا المستشرق لم يكن متحرياً لقواعد وأصول المنهج العلمي الصحيح . وإنما اختار فقط النصوص التي تتفق مع الاتجاه الذي اختاره هو سلفاً ، وهو اتجاه يتسم بالعداء والكراهية للإسلام والمسلمين (٢) ، والحق أن البحث العلمي النزيه لا صلة له إطلاقاً بالرغبة في الطعن أو التجريح بل الأسلوب العلمي دائماً يحتم ضرورة الاستيثاق من صحة النصوص والأسانيد، ولكن الرغبة في التجريح والتشويه كثيراً ما حملت المستشرقين على التماس أسانيد

(١)هو مستشرق فرنسي متعصب ، ولد في سنة ١٨٨٧م ، وتوفي في سنة ١٩٧١م – تعلم اللغة العربية والتركية والفارسية من مدرسة اللغات الشرقية ، ثم قصد مصر وانضم إلى المعهد الفرنسي للآثار الشرقية عام ١٩٠٩م ، وانتدبته كلية الآداب في الجامعة المصرية أستاذاً للأدب العربي عام ١٩١٢م ، فألقى محاضرات بالعربية ، وانتخب بعد ذلك عضواً في المجمع العلمي المصري عام ١٩٣٠م ، وبعد مغادرته مصر عين أستاذاً في معهد فرنسا . وآثاره وافرة ومتنوعة تربو على ٢٢٩ مؤلفاً موزعة على مجموعات علمية أو مجلات استشراقية . انظر : المستشرقون جـ١/٢٧٦-٢٧٧ ، نجيب العقيقي ، دار المعارف ، القاهرة .

(٢)انظر ذلك النقد القيم لهذا لكتاب(مجد الإسلام) للدكتور حسين مؤنس ، في الملحق الذي تضمنه كتاب " الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي " ، ص ٥٦٥-٥٧٧ ، د / محمد البهي .

واهية مرفوضة يؤيدون بها ما يقررونه من شبهات وافتراءات حول الإسلام ، وهذا بطبيعة الحال أمر ليس من العلم في شيء، وإنما هو انحراف عن المنهج العلمي السليم (١) .

٢- إنها دراسات ومناهج ذات ارتباط وثيق بالأطماع الغربية في العالم الإسلامي : فهناك تعاون وثيق وتواصل مستمر بين حركة الاستشراق والاستعمار . فحيث يكون الاستعمار يكون الاستشراق ، فمعظم الدول الاستعمارية لها مؤسسات استشراقية ، والقاعدة التي لا تتخلف هي أن الاستعمار يصحبه دائماً الاستشراق ، والتوسع الاستعماري يصحبه دائماً التوسع الاستشراقي (٢) .

٣- إنها دراسات ذات علاقة وطيدة بالتنصير : فكثير من المستشرقين نصارى تخصصوا في الدراسات اللاهوتية ، وأعدوا إعداداً خاصاً للتعاون مع المستشرقين اليهود للقيام بمهمة دراسة الإسلام والمسلمين لأهداف غير علمية منها : التعرف على الثغرات التي يمكن استغلالها لتشويه صورة الإسلام كما يزعمون ، وبث الفرقة والفتنة بين المسلمين ، وإثارة الشبهات لتشكيكهم في دينهم ، وبعضهم كان وما يزال يمارس بعض الأنشطة الاستشراقية والتنصيرية معاً بصور مختلفة ودرجات متفاوتة من أمثال : جورج سيل ، وماسينيون وصموئيل زويمر ولامانس ومنتجمري وات (٣) .

٤- إنها دراسات بحكم تعاونها مع الاستعمار والتنصير : لا تلتزم على أية حال بالموضوعية والأمانة العلمية في تناولها للإسلام بوجه خاص : فهي تجنح دائماً إلى تغيير الحقائق ، وإعطاء صورة خاطئة عن الإسلام لدى الغربيين وبعض المسلمين ممن تأثروا بثقافات الغرب المسيحي ، فالالتزام المطلوب في مثل هذه الدراسات يمكن تحقيقه لو صدقت النوايا ، وكان هناك تمسك حقيقي بالمنهج العلمي السليم .

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية ، ص ٧٨ ، د / زقزوق ، وانظر : رؤية إسلامية للاستشراق ، ص ٧ ، د / أحمد غراب .

(٢) انظر : رؤية إسلامية للاستشراق ، ص ٨-٩ ، د/ غراب .

(٣) انظر : رؤية إسلامية للاستشراق ، ص ٨-٩ ، د / غراب .

والخلاصة أن المستشرقين بهذه السمات والملامح قد أسهموا برسم صورة لم تكن دقيقة عن الإسلام حيث سجلوا العديد من انطباعاتهم السطحية عنه دون الاحتكام إلى معايير ثابتة تنطلق منها بممارسات أهل الشرق ولا سيما المسلمون منهم ، ويتبع هذا كله عدم قبول هذه المعلومات على علاتها دون عرضها على المعيار الثابت بحجة أنها جاءت من المستشرقين ، وأنهم كانوا حريصين على المجتمع الذي يتحدثون عنه ، أو أنهم خدموا التراث والواقع خدمة لم يصل إليها أبناء المجتمع نفسه كما يزعم بعض الذين يعملون لمصلحة الفكر الاستشراقي من العملاء في معظم دول العالم.

إن هذا الانحراف العلمي في مناهج المستشرقين هو للأسف طابع الكثير من الدراسات الاستشراقية حول الإسلام ، الأمر الذي يجعلنا نحن المسلمين نقف منها موقف الحيطة والحذر ، ويحتم علينا الكشف عما فيها من زيف وخداع ، فالكثير من الآراء التي يقولون بها مبنية كما قلت على افتراضات لا أساس لها ، وتخمينات لا سند لها ، ونحن لا نطلب من كل مستشرق أن يغير معتقده ، أو يعتقد ما نعتقده عندما يكتب عن الإسلام ، ولكن هناك أولويات بديهية يتطلبها المنهج العلمي السليم لابد منها . فليس غريباً أن يختلف المستشرقون معنا نحن المسلمين في الرأي حول الإسلام لأن القاعدة التي ينطلقون منها في دراستهم للإسلام – تختلف – عن المنطلق الذي يصدر عنه تفكير المسلمين (١) ، ولكننا نريد من كل من يتحدث عن الإسلام سواء أكان مسلماً أم غير مسلم أن يكون محايداً ومنصفاً ، لأن هذه هي أبسط قواعد المنهج العلمي ، ولأن النقد الموجه دائماً للاستشراق والمستشرقين يرجع في الأصل إلى أنهم لم يلتزموا في دراسة الإسلام والمسلمين بالمنهج الصحيح المتصف بالموضوعية القائمة على تجرد الأفكار والأحكام من النزعات الشخصية ، وأنهم لو التزموا بالمنهج العلمي الصحيح لعرفوا أن الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله تعالى للإنسانية كلها مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ .... ﴾ (٢) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ (٣) .

****

(١) الاستشراق ، ص ٧٨-٧٩ ، د / زقزوق ، بتصرف يسير .

(١) سورة المائدة : ٣

(٢) سورة آل عمران : ١٩ .

المبحث الثاني

أصناف المستشرقين وأهدافهم

أولاً : أصناف المستشرقين :

من المعلوم لدى الباحثين : أن المستشرقين المهتمين بالدراسات العربية والإسلامية لم يكونوا على شاكلة واحدة ، وإنما تعددت أصنافهم وطوائفهم تبعاً لاتجاهاتهم واهتماماتهم المختلفة في دراستهم عن الإسلام – ومن ثم يكاد الدارسون لحركة الاستشراق يجمعون على تصنيف المستشرقين إلى ثلاثة أصناف كما يلي :

(١) المستشرقون المتعصبون :

وهؤلاء يمثلون الجمهرة الكبرى من المستشرقين الغربيين ، وقد أوقفوا حياتهم على أن يطعنوا في الإسلام ليشوهوا محاسنه ، ويحرفوا حقائقه وليثبتوا لجماهيرهم التي تخضع لزعامتهم الدينية أن الإسلام – وقد كان يومئذ الخصم الوحيد للمسيحية في زعم الغربيين – دين لا يستحق الانتشار وأن المسلمين قوم همج وسفاكو دماء . يحثهم دينهم على القتال ويبعدهم عن كل سمو روحي وخلقي ، ثم اشتدت حاجة هؤلاء المستشرقين المتعصبين إلى تشويه سمعة الإسلام وتشديد الهجوم عليه في نفوس رواد ثقافتهم من المسلمين لإدخال الوهن إلى العقيدة الإسلامية ، والتشكيك في التراث الإسلامي والحضارة الإسلامية [١]

ولا تزال حملات الطعن بالهجوم على الإسلام من جانب هؤلاء المستشرقين قائمة ، ولا تزال افتراءاتهم الظالمة ، وأباطيلهم السافرة تتوالى للتطاول على شخصية نبينا وشفيعنا سيدنا محمد ﷺ .

كما وقع في بعض الصحف الأوروبية في الآونة الأخيرة[٢] . ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[٣] .

---

(١) انظر : الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، ص ٢٠-٢١ ، د / مصطفى السباعي ، الطبعة الرابعة ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م ، دار الوراق للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق . انظر : أوروبا والإسلام ، ص ١٣٦-١٣٧ ، د / عبد الحليم محمود ، شيخ الأزهر الأسبق ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م ، دار المعارف بالقاهرة . وانظر دراسات في الاستشراق ، ص ٨٩ ، د / علي علي شاهين ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م ، دار الطباعة المحمدية بالأزهر .

(٢) إشارة إلى ما اقترفته بعض الصحف الدنماركية من الإعلان الصريح ، والحقد الدفين عن الاستهزاء والسخرية بأعظم نبي وأفضل رسول – مما استثار حفيظة أكثر من مليار وثلث مسلم هم مجموع المسلمين في العالم كله تقريباً .

(٣) سورة الكهف : ٥ .

ويمثل هؤلاء على سبيل الإيجاز : المستشرق صمونيل زويمر [١] ،والمستشرق (جولد زيهر) [٢] ، والمستشرق (مرجليوث) [٣] ، وغيرهم .

(٢) المستشرقون الذين وصفوا بالإنصاف :

وهؤلاء ينقسمون إلى قسمين :

الأول : وهم جماعة وصفوا بالإنصاف في الأوساط العلمية وأظهروا أنهم أقبلوا على الاستشراق بدافع من حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها ، وزعموا أنهم متحررون تماماً في بحوثهم العلمية من أثر العواطف الدينية – فكتبوا في الإسلام وأظهروه في صورة مشوهة غير واضحة وهم في الحقيقة من منافقي المستشرقين[٤] ، ولعلهم في الواقع يكونون أشد خطورة على الإسلام من المستشرقين المتعصبين لكتمانهم العداوة له .

يقول الدكتور السباعي – رحمه الله – عن هذا الصنف : " ومن المستشرقين

---

(١) مستشرق منصر أمريكي الجنسية ، ولد سنة ١٨٦٧ م ، وتوفي في سنة ١٩٥٢م ، رئيس المبشرين في الشرق الأوسط ، وله مصنفات ومؤلفات عديدة منها : (الإسلام تحد لعقيدة) صدر في سنة ١٩٠٦م ، وكتاب (الإسلام في جنوب أمريكا) ، وكتاب (الإسلام في جنوب أوروبا) و (الإسلام في الصحراء العربية) ألفه سنة ١٩٣٤م ، وتقديرا لجهوده التبشيرية أنشأ الأمريكيون وقفاً باسمه على دراسة اللاهوت وإعداد المبشرين " أ.هـ . راجع المستشرقون جـ٣ / ١٣٨ ، العقيقي . والفكر الإسلامي الحديث ، ص ٤٩٠ ، د / محمد البهي .

(٢) مستشرق يهودي مجري متعصب عرف بعدائه الشديد للإسلام ، وبخطورة كتاباته عنه ، ومن محرري دائرة المعارف الإسلامية ، وولد في عام ١٨٥٠م ، وتوفي في عام ١٩٢١م – وفد إلى مصر في سنة ١٨٧٣م ، حيث تضلع من العربية على شيوخ الأزهر ، ومن أهم آثاره ما كتبه عن الإسلام بعنوان (العقيدة والشريعة في الإسلام) ، وكتاب (تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي) وغير ذلك – كلها تنضح بالأخطاء والهفوات التي لا تخفى على كل من طالعها . أ.هـ . انظر : الفكر الإسلامي الحديث ، ص ٤٩٠ ، د / محمد البهي ، وانظر : المستشرقون ، جـ٣/٤٠-٤٣ ، نجيب العقيقي ، باختصار .

(٣) مستشرق إنجليزي متعصب ضد الإسلام ، ولد في سنة ١٨٥٨م بلندن ، وتوفي بها أيضا سنة ١٩٤٠م، تخرج باللغات الشرقية من جامعة أكسفورد ، وأتقن العربية ، له العديد من المؤلفات عن الإسلام وتاريخه وآدابه منها : كتاب (التطورات المبكرة في الإسلام) صدر سنة ١٩١٣م ، وكتاب (محمد مطلع الإسلام سنة ١٩٠٥م) وشارك في إعداد دائرة المعارف الإسلامية ، وعمل عضواً بالمجمع اللغوي المصري ، والمجمع العلمي بدمشق " أ.هـ . وانظر : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص ٤٩٣ ، د/البهي ، وانظر : المستشرقون / جـ٢/ ٧٧ ، نجيب العقيقي ، باختصار .

(٤) انظر : الإسلام والمستشرقون ، ص ١٨٢ ، تأليف نخبة من العلماء المسلمين ، عالم المعرفة ، جدة ، السعودية ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م ، بتصرف .

نفر قليل جداً اقبلوا على الاستشراق بدافع من حب الإطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها ، وهؤلاء كانوا أقل من غيرهم خطأً في فهم الإسلام وتراثه ، لأنهم لم يكونوا يتعمدون الدس والتحريف " [1] ، لكن هذا لا يعفيهم أبداً – فيما أرى – من أن ينضموا إلى إخوانهم من المستشرقين المتعصبين ، لأنهم لو كانوا منصفين حقاً لأدى بهم الإنصاف إلى اعتناق الإسلام بل والدفاع عنه .

الثاني : وهم جماعة زعموا أن لهم أهدافاً علمية خالصة لا يقصد منها إلا البحث والتمحيص ، ودراسة التراث العربي والإسلامي دراسة تجلوا لهم بها بعض الحقائق الخافية عنهم ، وهذا الصنف قليل عدده جداً ، وهم مع إخلاصهم المزعوم في البحث والدراسة لا يسلمون من الأخطاء ، والاستنتاجات البعيدة عن الحق . إما لجهلهم بأساليب اللغة العربية ، وإما لجهلهم بالأوضاع التاريخية على حقيقتها ، فيحبون أن يتصوروها كما يتصورون مجتمعاتهم ناسين الفروق الطبيعية والنفسية والدينية التي تفرق بين المناهج التي يدرسونها وبين الأوضاع الحاضرة التي يعيشونها ، وهؤلاء سرعان ما يرجعون إلى الحق حين يتبين لهم وكثيراً ما يتهمهم غيرهم من المستشرقين المتعصبين بالانحراف العلمي أو الانسياق وراء العاطفة أو الرغبة في مجاملة المسلمين والتقرب إليهم [2] .

ومن المفيد هنا أن نذكر بعض الأمثلة والنماذج لهؤلاء فنجد من أبرزهم المستشرق(الكونت هنري كاستري) [3] ، الذي درس الإسلام دراسة عميقة وكتب عنها كتاباً نشر بعنوان (الإسلام سوانح وخواطر) ، تحدث فيه عن كثير من جوانب الإسلام سواء ما يتعلق منها

---

(1) الاستشراق والمستشرقون،ص ٢٤ ، مرجع سابق.

(2) الإسلام والمستشرقون ، ص ١٨٢ ، نخبة من العلماء المسلمين ، عالم المعرفة .

(3) ولد الكونت هنري كاستري في سنة ١٨٥٠م ، وتوفى سنة ١٩٢٧م /، وكان يعمل مقدماً في الجيش الفرنسي ، وقضى في الشمال الأفريقي ردحاً من الزمن ، ومن آثاره : مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب العربي (١٩٠٥م) والأشراف السعوديون ، ورحلة هولندي إلى المغرب ١٩٢٦م وغيرها . انظر كتاب : قالوا عن الإسلام ، ص ٦١ ، د / عماد الدين خليل ، طبعة أولى ، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض .

بالرسول ﷺ أو فيما يتعلق بالتعاليم الإسلامية [1] .

ومن هؤلاء أيضاً : أديب روسيا (تولوستوي) الذي عرف حقيقة الدين الإسلامي ، وعرف الحملات الظالمة التي يشنها الحاقدون عليه وعلى الرسول ﷺ . فكتب رأيه في هذا الدين الذي أعجب به ، وتحدث عن رسوله الذي نال إكباره. فكان جزاؤه على ذلك . أي على كلمة الحق التي قالها – أن حرمه البابا من رحمة الله (في زعمه) ، لأنه لا يمكن لأي مخلوق على وجه الأرض مهما كانت منزلته أن يحرم أحداً من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، قال تعالى : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [2] ، فكان ذلك كما قال الشيخ محمد عبده مخاطباً هذا المستشرق الأديب " فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين [3] ، ومن هؤلاء المستشرق (كارلايل) الذي عدَّ محمداً ﷺ – في الأبطال – ، وخصه بصفحات كثيرة من كتابه المعروف (الأبطال) [4] يقول فيه : " من العار أن يصغى أي إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين : أن دين الإسلام دين كذب ، وأن محمداً لم يكن على حق ، فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي ظلت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من الزمان لملايين كثيرة من الناس ، وما الرسالة التي أداها محمد ﷺ إلا الصدق والحق ، وما كلمته إلا صوت حق صادق صادر من العالم المجهول ، وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع ذلك أمر الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء [5] .

ونحن لا نسلم له بصحة هذا الاعتراف المشبوه ، والمشوب بالخطأ

---

(1) أورروبا والإسلام ، ص ٥٣ ، د / عبد الحليم محمود ، مرجع سابق ، وانظر : انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه ، ص ٦٦-٦٧ ، محمد فتح الله الزيادي .

(2) سورة الأعراف : ١٥٦ .

(3) أوروبا والإسلام ، ص ٦٤-٦٥ ، د / عبد الحليم محمود رحمه الله .

(4) انظر وتأمل أيها القارئ الكريم في هذا – العنوان – الذي عنون به هذا المستشرق كتابه عن الرسول ﷺ – حيث عدَّه في عداد الأبطال ، ولم يرد أن يصرح بنبوة سيدنا ﷺ – لحاجة في نفسه – فأين الإنصاف إذن .

(5) أوروبا والإسلام ، ص ٦٠ . وانظر : أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، ص ٢٨ ، د / علي محمد جريشة ، ومحمد شريف الزيبق ، دار الاعتصام .

والجهل الواضح حيث لم يقر بإمكانية نزول الوحي الإلهي على الرسول ﷺ . فزعم انه صادر من العالم المجهول ، وهذه زلة من زلات المستشرقين التي لا تخفى على أحد من العقلاء المنصفين .

ويعد رينان [١] من هؤلاء المستشرقين الذين وصفوا بالاعتدال والإنصاف على تفاوت فيما بينهم ، فقد انتهى به البحث إلى إثبات أن المسيح عليه السلام لم يكن إلهاً أو ابن الله ، وإنما هو إنسان يمتاز بالخلق السامي والروح الكريمة ، وأن السير العربية للنبي محمد ﷺ كسيرة ابن هشام لها ميزة تاريخية اكبر من الأناجيل المتداولة بين النصارى [٢]، وسوف نعرض لبعض هؤلاء المستشرقين في مبحث آخر نجلي فيه بعض الحقائق عن الأخطاء الفادحة التي تورطوا فيها بصورة غير مقبولة .

ولكن قد يرد على الذهن هنا هذا التساؤل لماذا لم يعتنق هؤلاء الإسلام بعد كل هذه الأقوال والاعترافات الصريحة ؟ ولا سيما وأن هذه الآراء والأقاويل تعبر في ظاهرها عن مدى اقتناعهم بالإسلام وإعجابهم به ، ونجيب بأنه ربما لأمور اجتماعية أو مادية أو سياسية أحيانا خاف هؤلاء من أن يعلنوا اعتناقهم للإسلام ، فهم يعلمون يقيناً لو فعلوا ذلك . فإن الكنيسة ومؤسساتها سوف تضيق عليهم الخناق ، وسوف تشن عليهم حرباً عنيفة تبدأ من الاحتقار والازدراء لهم ، وتمتد إلى قطع المساعدات المالية عنهم ، وإلى العزل من الوظائف ، إلى غير ذلك من الوسائل التي لا

(١) هو المستشرق والفيلسوف الفرنسي " أرنست رينان " يذكر في عداد المستشرقين الذين وصفوا بالاعتدال والإنصاف ، ولد في فرنسا سنة ١٨٢٢م ، وتوفي في سنة ١٨٩٢م ، ودخل المدارس اللاهوتية حيث برز فيها ، وتضلع من اللغات الشرقية حتى صار من ثقاتها ، ثم أخذ بمذهب حرية الفكر ، ورحل إلى المشرق ونزل بلبنان حيث صنف كتابه (حياة يسوع) ، وعني بالعقائد الإسلامية ، وقد انتخب عضواً في المجمع اللغوي الفرنسي سنة ١٨٧٨م . ومن آثاره : كتاب ابن رشد والرشدين . ذكر له ثمانية وسبعين كتاباً علق عليها بقوله " (لولا ابن رشد ما فهمت فلسفة أرسطو " ، وله أيضاً : كتاب تاريخ اللغات السامية تناول فيه علاقة النحو العربي بمنطق أرسطو في جزأين ، وله كتاب تاريخ الأديان وغيرها ، أ.هـ . انظر : المستشرقون ، جـ١/١٩١ ، العقيقي ، باختصار .

(٢) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، ص ٢٨ ، مرجع سابق .

يستطيعون الصمود أمامها ، وها هو اللورد هيدلي " الذي كان لإسلامه ضجة كبيرة يقول : " إنني أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً مسلمون قلباً ، ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد الناشئ عن التغيير تآمرا على منعهم من إظهار معتقداتهم [١] ، ولعل ما جاء في هذا التصريح الجرئ الذي أعلنه هذا المستشرق المهتدي إلى الإسلام ما يجيب على السؤال المطروح من قبل .

(٣) المستشرقون المهتدون إلى الإسلام :

وهم الذين انتهى بهم البحث الخالص لوجه الله إلى اعتناق الإسلام ، وهم طائفة أخلصت للعلم ، وأخلصت للضمير الإنساني ، ورمت عن كاهلها كل ألوان العصبيات ، وأقبلت على الإسلام بروح طاهرة تدرس وتستنبط في أمانة ودقة ، ولم يقفوا عند حد الإنصاف العلمي المجرد بل أعلنوا إسلامهم ، واعتنقوا الدعوة عن إيمان حقيقي ، وانتصر في سلك رجالها ، وناصروه بأقلامهم ، واذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر : المستشر (ليوبولدفايس) [٢] الذي سمى نفسه بعد ذلك باسم (محمد أسد) ، و (إتين دينه) [٣] والذي سمى نفسه باسم (ناصر

(١) أوروبا والإسلام ، ص ٥٢-٦٧ ، بتصرف يسير ، وانظر : انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه ، ص ٦٨-٦٩ ، مرجع سابق .

(٢) ولد محمد أسد في سنة ١٩٠٠م ، وهو مستشرق يهودي نمساوي الأصل ، أشهر إسلامه وتسمى بمحمد أسد ، وأنشأ بمعاونة وليم بكتو الذي أسلم هو الآخر : مجلة الثقافة الإسلامية في حيدر أباد الدكن سنة ١٩٢٧م ، وكتب فيها دراسات وفيرة معظمها في تصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام ، ومن آثاره : ترجم صحيح البخاري بتعليق فهرس سنة ١٩٣٥م وألف في أصول الفقه الإسلامي ، والإسلام على مفترق الطرق ، وقد نقله إلى العربية : الدكتور عمر فروخ ، طبعة بيروت ، سنة ١٩٤٦م ، وكتاب الطريق إلى مكة ، ومنهاج الحكم في الإسلام ، وتوفي سنة ١٩٩٢م ، يرحمه الله " . ا.هـ . انظر المستشرقون ، جـ٢/٢٩٢ ، العقيقي ، باختصار .

(٣) ولد في سنة ١٨٦١م ، وتوفي في سنة ١٩٢٩م ، تعلم في فرنسا ، وقصد الجزائر ، فكان يقضي في بلده بو سعادة نصف السنة من كل عام ، وابتنى لها قبرا ، وأشهر إسلامه ، وتسمى بناصر الدين سنة ١٩٢٧م ، وحج إلى بيت الله الحرام سنة ١٩٢٨م ، ومن آثاره . محمد في السير النبوية

الدين)، والشاعر الألماني الكبير (جوتيه)[١]، والدكتور (جرينيه) الذي كان عضواً في مجلس النواب الفرنسي وغيرهم)[٢].

بالفرنسية والإنجليزية، وترجمه إلى العربية الدكتور/ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق يرحمه الله، وله بالفرنسية أيضاً: حياة العرب، وحياة الصحراء، وأشعة من نور الإسلام، وقد نقله إلى العربية الأستاذ / راشد رستم، وله كتاب الشرق في نظر الغرب، وكتاب الحج إلى بيت الله الحرام، أ.هـ. انظر: المستشرقون، جـ١/٢٢٨ للعقيقي، وانظر: قالوا عن الإسلام، ص ٦٣، د / عماد الدين خليل، الندوة العالمية للشباب الإسلامي الرياض، طبعة أولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

(١)مستشرق فرنسي، تخرج بالفلسفة من جامعة باريس، وعين أستاذاً للفلسفة الإسلامية في الجزائر، ومن آثاره: ترجم الكشف في مناهج الأدلة لابن رشد، سنة ١٩٠٥م، وترجم الفرق بين الدين والفلسفة لابن رشد في كتبه: فصل المقال، والتهافت وفصل الخطاب، والمدخل إلى دراسة الفلسفة الإسلامية، وله كتاب بعنوان (الدين الإسلامي)، طبعة ١٩٢٣م، نقله إلى العربية الدكتور / محمد يوسف موسى وغيرها من المؤلفات أ.هـ المستشرقون، جـ١/٢٨٤ - ٢٨٥ العقيقي، باختصار

(٢)انظر في ذلك: أوروبا والإسلام، ص ٣٧، ٧٢، ٨٧، ٨٨، أساليب الغزو الفكري ص ٢٩، وكتاب الإسلامية والقوى المضادة ص

ثانيا: أهداف المستشرقين:

بعد أن تعرفنا على أصناف المستشرقين من خلال ما اتفقت عليه دراسات وبحوث علماء الإسلام. نحاول هنا أن نعرض بشيء من الإيجاز لبعض الأهداف التي يعمل المستشرقون على تحقيقها من خلال دراساتهم وبحوثهم عن الإسلام فنقول وبالله التوفيق:

١- محاولة إعطاء صورة مشوهة عن الإسلام كدين، وعن الشرق كحضارة، وعن العربية كتراث وذلك حتى يمكن من خلال هذه الصورة: تنفير الكثير ممن اشرأبت نفوسهم لتفهم الإسلام واعتناقه، وفي تحقيق هذا الهدف خدمة كبيرة يقدمها المستشرقون للكنيسة، ولحركة التبشير بصفة عامة[٣].

١١٨، د / نجيب الكيلاني، وانظر: الاستشراق في الميزان، ص ١٢٨-١٣٠ د / منذر معاليقي، طبعة أولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، المكتب الإسلامي، بيروت.

(٣)انظر: انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه، ص ٦٠، محمد فتح الله الزيادي، وانظر أيضاً: أساليب الغزو الفكري، ص ٢١، د / علي جريشة، الاستشراق والخلفية الفكرية، ص ٧٠ مرجع سابق

٢- التشكيك في صحة رسالة النبي ﷺ ومصدرها الإلهي، فجمهورهم ينكر أن يكون الرسول ﷺ نبياً موحى إليه من عند الله جل شأنه، ويتخبطون في تفسير مظاهر الوحي التي كان يراها أصحاب النبي ﷺ أحياناً، وبخاصة عائشة أم المؤمنين ﵂. فمن المستشرقين من يرجع ذلك إلى (وقوع صرع) كان ينتاب النبي ﷺ (حاشاه أن يكون كذلك كما يزعم المفترون) حيناً بعد حين، ومنهم من يفسرها بمرض نفسي وهكذا، وكأن الله لم يرسل نبياً من قبل حتى يصعب عليهم تفسير ظاهرة الوحي، وهكذا كان إنكارهم لنبوة النبي ﷺ تعنتاً مبعثه التعصب الديني الذي ملأ نفوس كثير منهم[١].

٣- إنكارهم أن يكون القرآن كتاباً منزلاً عليه ﷺ من عند الله عز وجل، وحين يفحمهم ما ورد من حقائق تاريخية عن الأمم السابقة مما يستحيل صدوره عن أمي مثل محمد ﷺ - يزعمون أنه ﷺ استمد هذه المعلومات من أناس كانوا يخبرونه بها، ويتخبطون في ذلك تخبطاً عجيباً ويتبعون ذلك كله بإنكارهم أن يكون الإسلام ديناً من عند الله، وإنما هو ملفق - كما يزعمون - من اليهودية والمسيحية، وليس لهم في ذلك أي مستند يؤيده البحث العلمي[٢].

والأمر في النهاية كما يقول بعض العلماء: "التدليل على بشرية القرآن"[٣]، ورفض كونه كلام الله تعالى المنزل على نبينا محمد ﷺ - وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٤].

****

(١)الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ص ٢٦، د / مصطفى السباعي، بتصرف.

(٢)الاستشراق والمستشرقون، ص ٢٧، وانظر الاستشراق، ص ٨٢-٨٣، بتصرف.

(٣)انظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص ١٩٨، د / محمد البهي.

(٤)سورة البقرة: ١٢٠.

المبحث الثالث

مناهج المستشرقين في الميزان

تمهيد :

من الحقائق الثابتة لدى علماء الإسلام أن المستشرقين لم يلتزموا منهجاً واحداً في دراساتهم عن الإسلام وإنما تشعبت بهم الطرق ، وتفرقت بهم السبل والمناهج التي اعتمدوا عليها في شتى بحوثهم ودراساتهم حسب اختلاف تصوراتهم ومفاهيمهم وأهوائهم عن الإسلام حتى صار منهم المتعصبون ، والذين وصفوا بالإنصاف ، ولم تسلم بحوثهم من بعض الأخطاء التي تورط الكثير منهم فيها : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ (١) ، مما يجعلنا لا نتردد في القول بأنه لا يوجد بينها كبير اختلاف ، بل تكاد تتفق جميعها على إعطاء صورة خاطئة عن الإسلام لدى الغربيين وغيرهم.

والذي يهمنا في هذا المبحث : هو أن نتعرف على بعض هذه المناهج المتضاربة والمتناقضة عند المستشرقين في دراساتهم عن الإسلام .

فمن الملاحظ على هذه المناهج بل وعلى حركة الاستشراق عموماً أنها تحاول التغيير في الأسلوب والطريقة التي كان ينتهجها المستشرقون من قبل في الهجوم على الإسلام . حيث إنهم تحولوا عن أسلوب الهجوم المباشر إلى الهجوم المستتر والمستخفي حتى لا يثيروا حفيظة المسلمين.

فإذا كنا نرى في بعض الكتابات الاستشراقية من لا يتورع عن إظهار الحقد على الإسلام – فإننا نرى في نفس الوقت أسلوباً آخر جديداً يحاول المستشرقون أتباعه – قد يفهم منه في الظاهر الإنصاف والاعتدال ولكن عند التدقيق فيه لا نجد إلا التشكيك والتشويه، والكيد المتعمد للإسلام وأهله (٢) . وهذا هو الإطار العام الذي اشتهرت به بحوث ودراسات مفكري الغرب عن الإسلام ليخدعوا به سائر المجتمعات المعاصرة .

---

(١)سورة الكهف : ١٠٤ .

(٢)انظر: انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه ، ص ٤٩-٥٠ ، محمد فتح الله الزيادي ، انظر: الاستشراق ، ص ٧٧ ، د / زقزوق ، وانظر الاستشراق ومشكلات الحضارة ، ص ٦٠ ، د/ عفاف صبره ، طبعة ١٩٨٠م ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة .

ومع ظهور هذا اللون من الكتابات والمناهج التي انبهر بها البعض من ذوي الميول الغربية ظهرت بعض الدعاوي المضللة التي تشير إلى أن منهج الاستشراق في البحث قد تغير وتطور بعض الشيء ، وذلك بدعوى الاتجاه إلى الموضوعية والأمانة العلمية ، ولذلك يطالب هذا البعض بأن تلقى كتابات المستشرقين عن الإسلام نظرة جديدة جادة تقوم على الثقة والاحترام (١) . ويحق لنا هنا أن نطرح هذه التساؤلات المهمة فنقول : ما مدى صحة هذه الدعاوى التي آثارها البعض ولا يزال حتى اليوم؟ .

وما مدى صدق هذه المزاعم التي لا تزال تسيطر على بعض المخدوعين بالاستشراق حتى الآن ؟ ونستطيع أن نتناول الإجابة عن هذه التساؤلات المطروحة على النحو التالي :

أولاً : طبيعة المنهج الاستشراقي :

إن أغلب دراسات المستشرقين وبحوثهم حول الإسلام تتسم دائماً بطابع التعصب والتحامل والكراهية العميقة للإسلام ، وإن عملهم ليناقض في كثير من الأحوال الطابع العلمي الصحيح ، ولم يكن الانحراف عن جادة البحث العلمي تهمة تلصق بهم دون أية حجة أو بينة . فقد كان من الصعب عليهم وأكثرهم مسيحيون أن ينسوا أنهم يدرسون ديناً ينكر عليهم معتقداتهم الباطلة من التثليث والصلب وهو من أشهر العقائد عندهم – ولهذا فقد عملت هذه المعتقدات المحرفة عملها في نفوسهم فدفعتهم إلى الانحراف والتخلي عن مبدأ الحيدة التامة فيما يتعرضون له من دراسات عن الإسلام ، ومن هنا أصبح من الواجب ألا نأخذ نتائجهم بروح التسليم والثقة ، وصار من الإنصاف العلمي أن ننظر إليها بعين الحذر والتحفظ والفهم الإسلامي السليم (٢) .

إن الفحص الدقيق والدراسة العلمية المتأنية لمناهج بعض المستشرقين تثبت أنهم غير جادين في الالتزام بالعلمية والإنصاف ، بل كثيراً ما يكون الدافع إليه الرغبة في التجريح وتوهين العقيدة الدينية ، ومما يدل لذلك ما عرضه أحد المستشرقين المعاصرين ويدعى(جواستون فييت) في

---

(١)انظر : انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه ، ص ٥٠ ، بتصرف .

(٢)انظر : الاستشراق ومشكلات الحضارة ، ص ٦٠ ، د / عفاف صبره ، مرجع سابق .

كتابه (مجد الإسلام) عرض تاريخ الإسلام عن طريق صفحات مختارة من أقوال المؤرخين والكتاب المعاصرين لكل فترة من فترات هذا التاريخ ، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب ينضح بالحقد والطعن في الإسلام وتاريخه ، لأن (جاستون فييت) اختار فقط النصوص التي تتفق مع الاتجاه الذي اختاره هو سلفاً ، وهو اتجاه يتسم بالعداء والكراهية للإسلام والمسلمين [1] هذا مع أن :

البحث العلمي النزيه لا يعرف الرغبة في الطعن والتجريح ، ولا البحث عن نقاط الضعف والتشويه وتصيد الأخطاء بل يحتم ضرورة الاستيثاق من صحة النصوص والأسانيد التي نستنبط منها ما نستنبطه من نظريات ، ولكن التجريح والتشويه كثيراً ما يحمل المستشرقين على التماس الأسانيد الواهية المفروضة ليؤيدوا بها أقوالهم ، وهذا بطبيعة الحال أمر ليس من العلم في شيء ، وإنما هو انحراف علمي عن النهج السليم ، وهو للأسف طابع الكثير من الدراسات الاستشراقية حول الإسلام .

الأمر الذي يجعلنا نحن المسلمين نقف منها موقف الوعي واليقظة ويحتم علينا الكشف عما فيها من زيف وخداع [2] .

ويؤكد هذه الحقيقة في بيان التحامل الاستشراقي على الإسلام — العالم الغربي المسلم (محمد أسد) [3] في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) فيقول :

" فيما يتعلق بالإسلام لا تجد موقف الأوروبي موقف كره في غير مبالاة فحسب كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات بل هو كره عميق الجذور ويقوم في الأكثر على صدود من التعصب الشديد ، وهذا الكره ليس عقليا فحسب ، ولكنه يصطبغ بصبغة عاطفية قويه فقد لا تتقبل أوروبا تعاليم

(1) انظر : الاستشراق والخلفية الفكرية ، ص ٧٨- ٧٩ ، د / زقزوق ، بتصرف يسير

(2) انظر المرجع السابق .

(3) هو احد المستشرقين المهتدين إلى الإسلام ، فقد درس الإسلام دراسة علمية منصفة ، وكان شديد الاهتمام بتعاليم الإسلام الدينية ، وهو عالم نمساوي الأصل . واعتنق الإسلام وتسمى باسم (محمد أسد) بعد أن كان يدعى قبل إسلامه (ليوبولد فايس) أسلم في عام ١٩٢٦م ، وكان ثمرة إخلاصه في اعتناق الإسلام تأليفه لهذا الكتاب (الإسلام على مفترق الطرق) . انظر: المستشرقون، جـ٢ /٢٩١ ، نجيب العقيقي ، دار المعارف بالقاهرة ، باختصار

البوذية ، أو الهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائماً حيالها بموقف عقلي متزن ومبني على التفكير ، إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ، ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب . حتى أن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام ، ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن — في زعمهم — أن يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي بل على أنه متهم يقف أمام قضاته ، وإن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام الذي يحاول إثبات الجريمة ، وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع .

وعلى الجملة فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج التي يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش — تلك التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى ... ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذي يقصدون أن يصلوا إليه مبدئياً ، وإذا تعذر عليهم الاختيار العرفي للشهود ، عمدوا إلى اقتطاع أقسام من الحقيقة أو تأولوا هذه الشهادات بروح غير علمي من سوء القصد من غير أن ينسبوا قيمة ما إلى عرض القضية من وجهة نظر الجانب الآخر — أي من قبل المسلمين أنفسهم ، وليس نتيجة هذه المحاكمة سوى صورة مشوهة للإسلام ، وللأمور الإسلامية تواجهنا في جميع ما كتبه مستشرقو أوروبا ، وليس ذلك قاصراً على بلد دون آخر .

وبما أن هؤلاء المستشرقين ليسوا سلالة خاصة ، ولكنهم طلائع مدنيتهم ، وبيئتهم الاجتماعية . فإننا من أجل ذلك يجب أن نستنتج أن في العقل الأوروبي على العموم لسبب ما ميلاً عن الإسلام بما هو دين وبما هو ثقافة [1] .

ويتضح من هذا الحكم أن الدراسات الاستشراقية عن الإسلام تقوم دائماً على الآراء المسبقة ، وهي الآراء التي كونها التعصب والحقد ، ولذلك تخلوا من الموضوعية فضلاً عن الإنصاف الذي يطمئن إليه بعض الناس مطلقاً ، وهذا الحكم لا ينفرد به العالم الغربي المسلم (محمد أسد) بل يشاركه فيه غيره من العلماء الغربيين الذين اهتدوا إلى الإسلام حيث يؤكد هؤلاء أن الصورة المشوهة للإسلام والعرب ما زالت مستمرة في مناهج الاستشراق ، وفي

(1) انظر: كتاب(الإسلام على مفترق الطرق) ، ص ٥٢-٥٤ ، تأليف محمد أسيد ، باختصار

وسائل الإعلام في الغرب بوجه عام ، وأنه ما زالت تنشر الكتب والمقالات باستمرار عن الإسلام بل وتزداد ضراوة وشراسة عن ذي قبل [١] .

نماذج لبعض كتابات المستشرقين عن الإسلام :

إن الناظر في مؤلفات بعض المستشرقين المعاصرين ، وفي مناهجهم التي سلكوها في كتاباتهم عن الإسلام يجد أن بعضها قد تغير شكلاً ولم يتغير مضمونا . بينما – ظل البعض الآخر منها على نفس النهج الذي سلكه أسلافهم من المستشرقين وليس أدل على ذلك مما سلكه زعيم المستشرقين المتعصبين " جولد تسهير " (١٨٥٠م – ١٩٢١م) في حديثه عن سيدنا محمد ﷺ فيقول :

" لكي نقدر عمل محمد ﷺ من الوجهة التاريخية ، ليس من الضروري أن نتسائل عما كان تبشيره ابتكاراً أو طريفاً من كل الوجوه ناشئاً عن روحه ، وعما إذا كان يفتح طريقاً جديداً بحتاً ، فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً من معارف وآراء دينية ، عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثيراً عميقاً [٢] ، ومعنى ذلك أنه يحاول من خلال هذا التخريف والتحريف إنكار نبوة سيدنا محمد ﷺ ، والإدعاء بأنه عليه السلام نقل كل ما جاء به عن اليهودية والنصرانية وعلى نفس المنهج المنحرف والمتعصب سار المستشرق (كارل بروكلمان) [٣] ، في كتابه الشهير(تاريخ الشعوب الإسلامية) حيث يقول : " أعلن محمد ﷺ – ما ظن أنه قد سمعه

(١) رؤية إسلامية للاستشراق ، ص ٨٠-٨٢ ، د / أحمد عبد الحميد غراب ، بتصرف ، وانظر : الاستشراق والخلفية الفكرية ،ص ٨٠-٨٢ ، د / زقزوق

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص ٥ ، للمستشرق جولد تسهير ، ترجمة : محمد موسى وآخرين ، طبعة ١٩٤٦م ، دار الكتاب المصري ، القاهرة .

(٣) ولد في سنة ١٨٦٨م ، وتوفى في سنة ١٩٦٥م ، وهو مستشرق ألماني الأصل ، ومن محرري " دائرة المعارف الإسلامية " ، ويعد صاحب أكبر موسوعة في تاريخ الآداب العربية باللغة الألمانية ، ومن مؤلفاته المهمة : تاريخ الشعوب الإسلامية المترجم من الألمانية إلى الإنجليزية ، وكان عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق ، وله أيضاً كتاب : تاريخ الشعوب والدول الإسلامية في خمسة أجزاء نقله إلى العربية الدكتور / نبيه فارس ، والأستاذ / منير البعلبكي سنة ١٩٤٩م " أ.هـ . انظر : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار ، ص ٤٨٤ ، د / البهي ، وانظر: " المستشرقون ، جـ٢/٤٢٤-٤٣٠ ، العقيقي . بتصرف .

كوحي من عند الله " [١] ، وهو يتفق بهذا الزعم في إنكار مسألة الوحي الإلهي – مع سلفه (جولد تسهير) – ومما يزيد الطين بلة – في الحديث عن مناهج المستشرقين ، وتجاوزاتهم للحقائق الناصعة التي قامت عليها سيرة الرسول ﷺ ما زعمه المستشرق (برنارد لويس) كذباً والافتراء على سيرة أعظم نبي وأفضل رسول فيقول : " لا يعرف إلا القليل عن نسب محمد وأوائل حياته بل إن هذا القليل قد أخذ يتناقض شيئاً فشيئاً كلما تقدم البحث الأوروبي ، وأثار شبهة أخرى حول المادة المضمنة في الأخبار الإسلامية " [٢] ، مع أن الحقيقة تنطق بخلاف ذلك – حيث لم يعرف على مدار التاريخ الإنساني كله – سيرة نبي أو رسول – دونت أو سجلت بأوثق وجوه التوثيق والأمانة العلمية – كسيرة نبينا ﷺ بكل تفصيلاتها ودقائقها ، ولكن المستشرقين لا يفقهون .

هذه بعض الأمثلة والنماذج لتجاوزات وأخطاء بعض المستشرقين في دراستهم عن الإسلام ، ومع ذلك كله يزعمون أنهم تحروا الموضوعية والإنصاف ، وإذا كانت هذه هي الصورة التي اشتهرت بها بحوثهم – فأين النظرة العلمية الثاقبة ؟ وأين التجرد من التعصب والهوى الذي ادعاه البعض ؟ إن إضفاء صفة العلمية على أبحاث المستشرقين قد قام به عدد منهم في محاولة – ماكرة خبيثة – لمسح تلك الصورة القاتمة التي تكونت في ذهن القارئ الغربي والمسلم عن أبحاث المستشرقين [٣] .

هذا ومن الملاحظ أن اعتماد المستشرقين المعاصرين في معلوماتهم عن الإسلام على من سبقهم من المستشرقين قد أدى إلى أن وقع المتأخرون في نفس الأخطاء التي وقع فيها المتقدمون عن قصد خبيث وسوء نية ، وهذا يحصل إذا كانت الدوافع والأهداف غير علمية مما عُرف الآن من دوافع المستشرقين وأهدافهم – ومما يدل على ذلك ما

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٣٦ ، كارل بروكلمان .

(٢) المستشرقون والإسلام ، ص ١٦ وما بعدها ، د / عرفان عبد المجيد ، طبعة ١٩٦٩م ، مطبعة الإرشاد ، بغداد .

(٣) انظر : رؤية إسلامية للاستشراق ، ص ٥٠ ، د / أحمد غراب ، بتصرف .

صرح به المستشرق(مونتجمري وات)[١] ، يقول : " جد الباحثون منذ القرن الثاني عشر في تعديل الصورة المشوهة التي تولدت في أوروبا عن الإسلام ، وعلى الرغم من الجهد العلمي الذي بذل في هذا السبيل فإن آثار هذا الموقف المجافي للحقيقة التي أحدثتها القرن المتوسطة في أوروبا لا تزال قائمة فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتثاثها " ، ونجد نفس هذا المستشرق (مونتجمري وات) قد وقع ضحية نظريته هذه فلم يستطع التخلص من الاتكاء على الماضي الاستشراقي في كتاباته حول الرسول محمد ﷺ ففي متابعة ما كتبه هذا المستشرق عن شخصية النبي ﷺ يجد المرء هنات وزلات كثيرة يصعب وقوع باحث منصف فيها ، ومن أقربها إلى ضرب المثال ما زعمه عن النبي ﷺ من انه عليه الصلاة والسلام : " كان يصعد إلى غار حراء ليتبرد من حر مكة "[٢]، إذ لم يكن يتمكن لفقره من الصعود للطائف للاصطياف كما كانت تفعل أغنياء قريش "[٣] أ.هـ – هذا مع أنه عليه الصلاة والسلام ، والثابت من سيرته العطرة انه كان يصعد إلى غار حراء للعبادة والذكر ، والطاعة والتبتل إلى الله – لا – للاصطياف كما يزعم هذا المستشرق .

وجملة القول في هذا الصدد أن الاستشراق ما دام ينطلق في أبحاثه ومناهجه من هذه النظرة القائمة على أن الإسلام ليس ديناً صحيحاً ، وأن محمداً ﷺ ليس نبياً مرسلاً ، والقائمة على التوجه المقصود نحو بلبلة أفكار المسلمين وغيرهم حول الإسلام ، فإن الدعوة للاتجاه العلمي الخالص في العصر الحاضر – لا يمكن التسليم بها أو تصديقها مطلقا .

---

(١)المستشرقون والإسلام ، ص ٣٦ ـ إبراهيم اللبان ، ط١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م ، ملحق مجلة الأزهر الشريف ، القاهرة .

(٢)هو عميد قسم الدراسات العربية في جامعة أدنبره سابقاً ، ومن آثاره : كتاب : عوامل انتشار الإسلام ، وكتاب : محمد في مكة ، ومحمد في المدينة ، والإسلام والجماعة الموحدة ، وهو دراسة فلسفية اجتماعية لرد أصل الوحدة العربية إلى الإسلام سنة ١٩٦١م . انظر : المستشرقون ، جـ٢/١٣٢ ، العقيقي ، وانظر : قالوا عن الإسلام ، ص ٨٩ ، د / عماد الدين خليل ، طبعة أولى ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م ، الرياض ، السعودية .

(٣)الاستشراق والدراسات الإسلامية ، ص ٣١-٣٢ ، د / علي إبراهيم النملة

فيما يتعلق ببحوث المستشرقين ودراساتهم عن الإسلام .

ثانيا : من الأخطاء المنهجية عند المستشرقين :

إن الدارس لمناهج المستشرقين في دراستهم عن الإسلام يجدها بعيدة كل البعد عن الالتزام الأمين لأبسط قواعد وأصول المنهج العلمي المتعارف عليه لدى لعلماء والباحثين المعتدلين في شتى فروع المعرفة والثقافة .

ومن هنا – كان من الأهمية بمكان – أن أعرض بشيء من الإيجاز لبعض أخطاء المستشرقين في دراساتهم عن الإسلام لأن ذلك في تقديري – هو الخطوة الأولى لنقدها نقداً صحيحاً ، وإثبات ما يتضمنها من تهافت أو زيف . الأمر الذي يجعل المستشرقين المنحرفين عن جادة الصواب يفكرون ألف مرة قبل أن يكتبوا عن الإسلام ، تجنباً لما قد يواجههم من نقد علمي يعريهم ويثبت زيف ادعاءاتهم، ويؤكد هذه الحقيقة المستشرق الفرنسي : (مكسيم رودنسون) حين يشير إلى " أن النقد الأوروبي ربما يكون غير عادل في نقاط معينة ، ولكن القيام بتنفيذ هذا النقد يقتضي بدوره دراسته أولاً إذ لا يمكن نقضه إلا على الأساس نفسه الذي قام عليه "[١] أ.هـ .

ولعل من المفيد في هذا المجال – أن أذكر بعض الأخطاء المنهجية عند المستشرقين في دراساتهم عن الإسلام وذلك على النحو التالي :

١ – الاستدلال الخاطئ على الأفكار المطروحة :

حيث يعتمد جمهرة المستشرقين في تحرير أبحاثهم عن الإسلام على ميزان غريب بالغ الغرابة في مجال البحث العلمي ، فمن المعلوم أن العالم المخلص لابد أن يتجرد عن كل هوى أو ميل شخصي فيما يريد البحث عنه ، ويتابع النصوص والمراجع الموثوق بها ، فما أدت إليه من نتائج وحقائق أذعن لها ، وسلم بها تسليمًا ، ولكننا نجد أغلب المستشرقين لا يحسنون عرض الأدلة على أية قضية يريدون إثباتها أو نفيها ، بل إنهم في معظم استدلالاتهم قد يتعمدون والتحريف وسوء التأويل في كتاباتهم عن الإسلام لأغراض خبيثة ، ومحاولات ماكرة .

---

(١)الاستشراق و خلفية الفكرية . ص ١٢٥ ، د . محمود زقزوق نقلاً عن : المنقذ من الضلال ، ص ١٠٣ ، للإمام أبي حامد الغزالي ، تحقيق د / عبد الحليم محمود ، القاهرة .

ومن ثم يسعون إلى تصيد الأدلة لإثباتها وحين يبحثون عن هذه الأدلة لا تهمهم صحتها بمقدار ما يهمهم إمكانية الاستفادة منها لدعم آرائهم الشخصية ، وكثيراً ما يستنبطون الأمر الكلي من حادثة جزئية ومن هنا يقعون في مفارقات عجيبة لولا الهوى ، والتعصب لابتعدوا بأنفسهم عنها [1] .

واكتفي هنا – بذكر بعض الأمثلة على هذا الخطأ – فيما يلي :-

(أ) ما حاوله المستشرق (جولد تسهير) لإثبات زعمه – بأن الحديث النبوي في مجموعه كان من صنع القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، وليس من قول الرسول ﷺ ، وادعى أن أحكام الشريعة لم تكن معروفة لجمهور المسلمين في الصدر الأول للإسلام ، وأن الجهل بها وبتاريخ الرسول ﷺ كان لاصقاً بكبار الأئمة (والعياذ بالله) وقد حشد لذلك بعض الروايات والأدلة الساقطة المتهافتة – من ذلك ما نقله عن كتاب (الحيوان) للدميري – من أن أبا حنيفة – رحمه الله – لم يكن يعرف (هكذا حسب ما زعمه هذا المستـ... هل كانت معركة قبل أحد أم كانت أحد ...

ولا شك أن أقل الناس اطلاعاً على التاريخ العام لسيرة أئمة المذاهب الفقهية الإسلامية وعلى رأسهم الإمام أبي حنيفة النعمان يرد مثل هذه الأكاذيب . فأبو حنيفة – رحمه الله – وهو من أشهر أئمة الإسلام الذين تحدثوا عن أحكام الحرب في الإسلام حديثاً مستفيضاً في الفقه الذي أثر عنه – يستحيل على العقل المنصف أن يصدق بأنه كان (والعياذ بالله) جاهلاً بوقائع سيرة النبي ﷺ ومغازيه ، وهي التي استمد منها فقهه في أحكام الحرب والجهاد [2] .

(ب) كما زعم المستشرق (كارل بروكلمان) في كتابه " تاريخ الشعوب الإسلامية " : أن العرب الفاتحين قد تعالوا على إخوانهم من المسلمين الأعاجم وانتقصوا من مكانتهم " . وفي تقرير ذلك يقول : " وإذا كان العرب يألفون طبقة الحاكمين ، فقد كان الأعاجم من الجهة الثانية هم الرعية : القطيع ..... " وانظر أيها القارئ الكريم كيف أعرض هذا المستشرق عن جميع

---

(1) انظر : الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، ص ٥٤-٥٥ ، د / مصطفى السباعي ، بتصرف .

(2) الاستشراق والمستشرقون ، ص ٥٥-٥٦ ، د/ مصطفى السباعي ، بتصرف .

الوثائق التاريخية التي تمتلئ بها المصادر الإسلامية والتي تؤكد عدالة الفاتحين المسلمين ، ومعاملتهم جميع أفراد الشعب على السواء في غير تفرقة بين عربي وغيره ، وتعلق بلفظ الرعية تعلقاً لغوياً – واستنتج منها أن المسلمين نظروا إلى الأعاجم نظر القطيع من الغنم . هذا مع أن الحقيقة غير ذلك تماماً – لأن الإسلام عندما أطلقها على القوم لم يخص بها الأعاجم ليشير إلى أن يراهم كالقطيع من الغنم – كما يزعم المستشرق المذكور – وإنما أطلقها على الشعب كله [1] ، والأحاديث في ذلك كثيرة معروفة منها ما ورد في صحيح البخاري وغيره قوله ﷺ: " ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته – فالإمام الذي على الناس راع ومسئول على رعيته ، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسئولة عنهم " [2] ، إذن فكيف أغمض (بروكلمان) عينيه عن هذا كله ، واستجاز لنفسه أن يدعي بأن المسلمين نظروا إلى الأعاجم نظرة القطيع ، وأنهم أطلقوا عليهم وحدهم لفظ الرعية ؟ ونجيب بأنه ليس له أي سند ولا شبهه يتعلق بها ، وإنما هو الهوى والغرض الذي عشش في أذهان المستشرقين ولا يزال حتى الآن [3] .

٣- الإفراط في اختراع العلل والأسباب :

وهذا خطأ آخر من أخطاء المنهج عند المستشرقين يكشف لنا عن مدى تدهور أسس النقد والبحث عندهم ، فتراهم دائماً يجتهدون في اختراع العلل والأسباب والحوادث التي يدرسونها اختراعاً ليس له سند إلا التخيل والتحكم ، ومما يزيد في فساد أسلوبهم هذا : أنهم يتخيلون أحداث الشرق والعرب وعاداتهم وأخلاقهم – بأوهامهم وخيالاتهم الغربية عن الشرق والعرب والمسلمين ، ولا يريدون أن يعترفوا بأن لكل بيئة مقاييسها وأذواقها وعاداتها الخاصة بها [4] .

ولقد أحسن المستشرق الفرنسي المسلم (ناصر الدين دينيه) صنعاً عندما تحدث عن أسلوب المستشرقين وموازينهم في الحكم على الأشياء . مما جعلهم

---

(1) المرجع السابق ، ص ٥٩-٦٠ .

(2) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما

(3) الاستشراق والمستشرقون ، ص ٦١ ، بتصرف يسير

(4) الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، ص ٦٢ ، د / السباعي ، بتصرف .

يتناقضون فيما بينهم تناقضاً واضحاً في الحكم على شيء واحد . كل ذلك لأنهم حاولوا تحليل السيرة النبوية وتاريخ ظهور الإسلام –بحسب العقلية الأوروبية فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً ، وذلك لأن المنطق الأوروبي القائم على النظرة الغربية المتعصبة ضد الإسلام لا يمكن أن يأتي بنتائج صحيحة عن تاريخ الأنبياء عليهم السلام " [١] ، إلى أن قال : ....

" إن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي ﷺ بهذا الأسلوب الأوروبي لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويمحصون بزعمهم – حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيهم ﷺ ، وكان ينبغي عليهم بعد هذه التدقيقات الطويلة أن يتمكنوا من هدم الآراء المقررة ، والروايات المشهورة من السيرة ، فهل تسنى لهم شيء من ذلك . ونجيب بأنهم لم يتمكنوا من إثبات أقل شيء جديد بل إذا أمعنا النظر في كل الآراء التي أتى بها المستشرقون لا نجد إلا خلطاً وخبطاً " [٢] أ.هـ

وهذا فنحن نرفض هذا المنهج الاستشراقي في دراسة الإسلام ، لأنه كما يرى بعض الباحثين " منهج مصطنع جاء وليد اللاهوت الأوروبي ، ولأنه منهج يقتصر عن فهم طبيعة الأديان السماوية ويحاول أن يضعها في صعيد واحد مع الاتجاهات الفكرية الإنسانية " [٣] .

٣- إتباع أسلوب تحريف الحقائق :

لعل من أبرز الأخطاء التي اشتهرت بها مناهج المستشرقين التركيز المتعمد على إتباع الأساليب الملتوية ، وقلب الحقائق الدينية الثابتة للإسلام وإحلال معلومات مزيفة ومحرفة محلها ، وهي بهذا المفهوم تعد من أبرز الخيانات العلمية ، لأنها تجافي الحقيقة التي يسعى العلم إلى وصفها ، وتقديمها في الصورة التي توجد عليها دون تغيير أو تبديل ، وكان الأولى بالاستشراق كما يرى بعض الباحثين أن " يحترم العلم ، وأن يؤمن بأهداف العلم النبيلة وغاياته الشريفة – لكنها شوهها حين عجز عن التجرد للبحث ، وخدمة الحقيقة المجردة عن المصالح والأهواء " [٤] .

---

[١] المرجع السابق ، ص ٦٣ .

[٢] السابق ، ص ٦٤ ، بتصرف .

[٣] الاستشراق والخلفية الفكرية ، ص ٨٩ ، د / محمود زقزوق ، بتصرف .

[٤] انظر : أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر ، ص ٣٦٧ – ٣٦٩ ، د / محمد خليفة ، طبعة ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م ، طبع ونشر الإدارة

ومهما يكن من شيء فإن هذا التحريف الذي يسعى الاستشراق إلى تحقيقه من خلال دراساته غير المنصفة عن الإسلام هو عمل مخل بطبيعة البحث العلمي ، لأن الهدف الأصلي من العلم مطلقاً هو البحث عن الحقيقة – بينما يضع الاستشراق لنفسه هدفاً مناقضاً لهدف العلم ألا وهو تحريف الحقيقة وتزييفها وتشويهها ، ويأخذ بأنصاف الحقائق ويبحث عن الشاذ والمنحرف ويتخذه نموذجاً أو عنواناً للحقيقة .

ومن ثم فإن الرغبة الاستشراقية في إتباع هذه الأساليب الملتوية المؤدية إلى تشويه الحقائق والإصرار على ذلك عبر تاريخ الاستشراق تكشف عن مبدأ غير أخلاقي يدفعه إلى تحقيق أهدافه ، وغاياته بكل الوسائل الممكنة [١] .

٤- غياب أخلاقيات البحث العلمي :

علمنا مما تقدم أن المستشرقين يتعمدون دائماً إنكار الحقائق ، ولا يودون الإعلان عنها ، هذا مع أن الأصل في البحث العلمي الالتزام بالأمانة والإقرار بالحقيقة ، لكن تجاهل هذا الأصل عند المستشرقين يوحي بان العمل الاستشراقي ينطلق من سوء النية والقصد ومن ثم اللجوء المقصود إلى الإخلال بالمنهجية العلمية ، والخروج على قيم العلم ومبادئه ، والانحراف عن الأخلاقيات التي يجب أن يتصف بها العمل العلمي السليم ، ولدينا اعتراف صريح من بعض الباحثين الأكفاء من الغرب . مما يؤكد على أن الاستشراق ليس إلا ظاهرة علمية خادعة ، وحركة فكرية ارتدت ثياب العلم والموضوعية لإيهام المسلمين وغيرهم . يقول د / مراد هوفمان في كتابه (الإسلام كبديل) :

" على أن النظرة الثاقبة الممحصة تبين قلة المؤلفين الموضوعيين الأكفاء الحريصين على توصيل الخلفية الفكرية والروحية للإسلام ظاهرة حضارية فذة " [٢] ، ثم

العامة بجامعة الإمام محمد بن سعود ، الرياض ، السعودية ، بتصرف .

[١] أزمة الاستشراق الحديث المعاصر ، ص ٣٨٤– ٣٨٦ ، د / محمد خليفة ، باختصار .

[٢] انظر : الإسلام كبديل ، ص ١٩ ، د / مراد هوفمان ، وهو مستشرق ألماني ، هداه الله إلى الإسلام من خلال دراسته المنصفة حقاً عن الإسلام، وكان يعمل سفيراً لألمانيا بالرباط في المملكة العربية المغربية ، واعتنق الإسلام في يوم ٢٥ سبتمبر عام ١٩٨٠ م . انظر في هذه الترجمة – (مقدمة كتاب الإسلام كبديل) أ.هـ

يعلن د / مراد هوفمان شهادته بعد ذلك – على فشل الاستشراق في فهم الإسلام وجهله به وهي في الواقع شهادة توضح أسلوب الخداع العلمي الذي تبناه الاستشراق كعلم غربي متخصص في دراسة الإسلام فيقول هوفمان : " على الرغم من أن العالم الغربي شن حرباً متتالية قروناً بطولها على العالم الإسلامي في الشرق الأوسط وفي أسبانيا وشمال إفريقيه وفي الهند – فإن العالم الغربي لا يحفل بمعرفة كنه الإسلام طيلة تلك القرون لا من الناحية الدينية ، ولا من الناحية الحضارية اللهم إلا في حالات منفردة ، ومن زوايا معينة لتسم جميعاً بالتجزئة وعدم الموضوعية ، وإن التاريخ المحزن أو المؤسف لترجمة معاني القرآن إلى لغات أوروبا ظاهرة مميزة تدل على الجهل بحقيقة هذا الدين ، وبقيت صورة الإسلام في مجموعها وحتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر مشوهة عجيبة غريبة وبعيدة عن الموضوعية " [1] أ.هـ

وهذه شهادة صريحة من مفكر غربي خبير بشئون الغرب وبطريقته الماكرة في تشويه صورة الإسلام ، حيث كان يعمل في مجال الاستشراق ، ولكن بعد أن هداه الله إلى الإسلام ، لم يدخر جهداً في إعلان هذه الشهادة للاستدلال بها على خطأ المستشرقين .

٥- الخروج على الموضوعية :

الأصل في نجاح أي بحث علمي هو احترام الموضوعية التي يجب أن ينطلق منها ، وإذا رجعنا إلى المستشرقين وجدناهم قد سلكوا طريقاً آخر يتنافى مع الأصول العلمية وهو الخروج على الموضوعية في البحث العلمي ، بمعنى عدم السماح للموضوع المدروس بالإفصاح عما فيه ، وعدم ترك المادة تؤدي بنفسها إلى النتائج التي تؤدي إليها بطبيعتها ، وبدون التدخل من الباحث ، ويعد هذا بمثابة تغيير في طبيعة الموضوع المدروس ، وتبلغ عدم الموضوعية أقصى مداها حين يحدد المستشرق النتيجة أولاً ، ثم يحاول إثباتها ثانياً من خلال طرق ملتوية ، وقد دأب كثير من المستشرقين على أن يعينوا لهم غاية ، ويقرروا في أنفسهم تحقيقها بكل طريق ثم يقوموا بجمع معلومات ليس لها أي علاقة

(1) الإسلام كبديل ، ص ٢١١ ،د / مراد هوفمان، الطبعة الثالثة ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م ، نشر مكتبة العبيكان الرياض ، السعودية . وانظر : الاستشراق الحديث والمعاصر،ص ٣٩١-٣٩٣، د / محمد خليفة حسن .

بالموضوع سواء من كتب الديانة والتاريخ، أو الأدب والشعر أو الرواية والقصص ، ويقدمونها بعد التمويه بكل جراة ويبنون عليها نظرية لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم [1] .

كذلك من صور الخروج على الموضوعية – في كتابات المستشرقين عن الإسلام : التركيز في دراسة الموضوع على البحث عن مواطن الضعف والسلبيات أو اختلاقها ، وهجر مواطن القوة والإيجابيات وما أكثرها في الفكر الإسلامي المدروس ، ثم استغلال هذه المواطن لتحقيق أهداف سياسية أو دينية لا علاقة لها بالعلم ، وهذا ما أكده الأستاذ / أبو الحسن الندوي حين قال :" إن طائفة كبيرة من المستشرقين كان دأبها البحث عن مواطن الضعف أو الروايات المدسوسة على الفكر الإسلامي ، وإبرازها لأجل غاية سياسية أو دينية ، فكان شأنهم في ذلك شأن من رأى الشمس طالعة مشرقة ثم ينكر ضوئها" [2] أ.هـ

وما أكثر ما جنت هذه الطريقة الخاطئة عند المستشرقين على المسلمين ويلات عديدة ومشكلات كثيرة ، بسبب الترويج للروايات الضعيفة ، والمدسوسة كذباً وبهتاناً على الإسلام ، والإسلام منها براء كل البراءة كبراءة الذئب من دم يوسف عليه السلام .

ومن ثم فلا يعرف العقل ولا المنطق حداً لما يقوم به معظم المستشرقين من محاولات التشويه لمبادئ الإسلام وثقافته، وإعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله . لذلك يقتضي الأمر ضرورة الاحتراس الشديد مما يكتبه هؤلاء المستشرقين وذلك للأسباب التالية :

أ- لقلة فهمهم الصحيح للنصوص الإسلامية المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية .

ب- ولسوء نياتهم في تصيد الآراء الضعيفة من الكتب التي لا اعتماد عليها في المصادر الإسلامية أو خطؤهم فيما يتوصلون إليه من نتائج بسبب

(1) الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين ، تقديم لكتابات المستشرقين ، واستعراض لبحوث المؤلفين المسلمين في الموضوعات الإسلامية، ص ١٦ ،للأستاذ / أبي الحسن الندوي، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، باختصار .

(2) انظر المرجع السابق ، ص ١٥-١٦ ، بتصرف يسير .

جهلهم بأحكام الشريعة الإسلامية وقواعد اللغة العربية .

جـ – ولإخفاء الأسانيد الصحيحة وتشويهها إذا وقعت تحت أيديهم [1] .

لذا فإننا نوصي بتوخي اليقظة والحذر من مثل هذه المحاولات الاستشراقية غير الأمينة في دراستها عن الإسلام ، ولا نأخذ كل بحوثهم وآرائهم قضايا مسلمة – ولكن لا بد من فحصه تماماً فما وافق منها الحق أخذنا به ، ودعونا الناس إليه ، وما خالفه ضربنا به عرض الحائط ، وحذرنا الناس منه .

٦– تعمد الخطأ في الاقتباس من المصادر الإسلامية .

كذلك ثبت من خلال الاطلاع على بعض البحوث والدراسات الاستشراقية عن الإسلام ، أن معظم المستشرقين لم يتحروا الأمانة والصحة في الترجمة والنقل عن المصادر الإسلامية ، بل إنهم تعمدوا قطع النصوص وبترها بتراً ، ونقلوها نقلاً غير أمين ، ثم جعلوها في صورة مشوهة لتوافق أهوائهم وتصوراتهم الخاطئة عن الإسلام ، فأصبحوا لا يتورعون عن تعمد سوء النقل ، وسوء التأويل الاستشهاد . وعدم الدقة العلمية في الاقتباس من الكتب والمراجع الإسلامية . ضاربين صفحاً عن كل الأصول والضوابط الأخلاقية الواجبة في البحث العلمي كالأمانة والدقة والتجرد والموضوعية ، وهم بهذا يلجأون إلى المعلومات الغريبة غير الموثقة في أمهات الكتب العربية فيتكئون عليها ؛ وتراهم في نفس الوقت يحيلون القارئ في كتبهم إلى المصادر التي يستشهدون أو يقتبسون منها ببياناتها الورقية التامة . فيعود القارئ إلى هذه الإحالات في هذه المصادر فلا يجد لها أثراً فيها ، أو ربما يتبين له بعد ذلك للموضوع المستشهد به ، أو النص المقتبس منه – أنه – على خلاف تام ومناقض للمقصود من هذا الاستشهاد أو الاقتباس أو ربما يتبين له أن في الأمر تحريفاً أو تصحيفاً ، وهكذا يحاول المستشرقون بعث الثقة لدى المسلمين بدعوى اعتمادهم على مصادرنا [2] في تعضيد أفكارهم التي يسعون إلى إثباتها ، أو تراهم من وجه آخر يسعون إلى تفسير بعض المعلومات بما يؤمنون به هم ، أو بما يريدونه من المتلقين أن يؤمنوا به إزاء معلومات حول حادثة تاريخية لها مساس بالثقافة والخلفية الفكرية والعلمية التي

(١) انظر : التبشير والاستشراق ، ص ٤٩–٥٠ ، محمد عزت الطهطاوي .

(٢) أعني مصادر الفكر الإسلامي عند المسلمين في شتى المجالات .

يتبناها المسلم في حياته [1] . ولنا هنا أن نطرح هذه التساؤلات : هل يمكن حقاً أن تصل هذه الأعمال الاستشراقية إلى درجة من الثقة يمكن معها الاستشهاد بها؟ .

وهل هذه هي الأمانة العلمية التي يجب أن تقوم عليها أصول البحث العلمي؟ .

ونسارع إلى الإجابة فنقول : إن معظم دراسات المستشرقين ولا سيما حول الإسلام لا تقوم إلا على كتمان الحقائق ، وتعمد الخطأ في النقل والاقتباس لحاجة في أنفسهم وهي محاولة تشويه الصورة الناصعة للإسلام في العالم الغربي بصفة خاصة ، والعالم الإسلامي بصفة عامة ، وبالله التوفيق ،،

ثانياً : أسس البحث عند المستشرقين .

بعد أن عرضت بعض الأخطاء التي وقع فيها المستشرقون في دراساتهم عن الإسلام ، وكلها تتعلق بالمنهج الذي سلكوه في البحث . أود هنا أن أشير إلى أبرز أسس البحث عند المستشرقين ، والتي لا تزال مستمرة في بحوثهم حتى اليوم للإسلام على النحو التالي :

أولاً : تحكيم الهوى ، والإصرار على نزعة العداء للإسلام والمسلمين ، والتعصب الأعمى للنصرانية ، والشعوب والأمم المنتمية إليها .

ثانياً : وضع الفكرة مقدماً ، ثم البحث عما يؤيدها مهما كانت ضعيفة واهية ، وكثيراً ما يعمدون إلى أسلوب المغالطات والأكاذيب ، وبتر النصوص ، أو التشكيك فيها ، أو الأخذ الواهي منها .

ثالثاً : تفسير النصوص والأحداث والوقائع والنيات والغايات تفسيرات لا تتفق مع دلالتها ، وأماراتها الحقيقية ، ولا مع النتائج التي أثبتها تاريخ الأمة الإسلامية .

رابعاً : تضخيم بعض الأخطاء اليسيرة والتركيز عليها ، وتحليلها والاستنتاج منها بنتائج تتنافى وتاريخ المسلمين ، وما يحفل به من صورة رائعة مشرقة .

خامساً : تجميع الهفوات التي لا تخلو منها أمة مهما عظمت ، ووضعها في صورة واحدة ، وتقديمها على أنها هي الصورة الحقيقية للمسلمين .

سادساً : رفض الحق بالنفي المجرد الذي لا يدعمه دليل صحيح مقبول في المنهج العلمي السليم .

(٣) انظر : الاستشراق والدراسات الإسلامية ، ص ٨١–٨٢ ، د . علي إبراهيم النملة

سابعاً : تصيد الشبهات التي يلتبس وجه الحق فيها على كثير من الناس ، ولا يستبين لهم ما لم يمتحنوها بالتجارب الطويلة ، والتشبث بإثارة الانتقادات حولها إتباعاً لأهواء النفوس وشهواتها في إطار من استغلال شعارات براقة المظهر تخدع من لا يعرف الحقائق"(١) أ.هـ

ومن كل ما تقدم يتبين أن المستشرقين الذين يزعمون الموضوعية ، وخدمة العلم من خلال دراساتهم عن الإسلام ، لم يلتزموا بالأسس التي لابد من مراعاتها في البحث العلمي . بل كانت أهواؤهم وعنصريتهم هي الغالبة عليهم في كل ما كتبوه عن الإسلام .

ثالثا : أصول البحث العلمي عند المسلمين وكيفية تناولها :

يجدر بنا هنا– أن نكشف بإيجاز عن بعض الأصول التي تقوم عليها البحث العلمي عند المسلمين ، والمعايير التي ينطلق منها ، وذلك لكي يتضح الفرق الشاسع ، والاختلاف الواضح بين الأسس الواهية التي قام عليها البحث عند المستشرقين ، وبين موازين البحث والنقد عند العلماء المسلمين ، وذلك على النحو التالي :

إن المنهج الذي سلكه علماء الإسلام في البحث في شتى العلوم والمعارف هو نفسه المنهج الذي حدده الإسلام في مجادلة أهل الكتاب وغيرهم – ممن كانوا يثيرون الشبهات والافتراءات حول الإسلام ، وهو منهج بين واضح ، صرحت به آيات قرآنية عديدة ، تبين آداب الحوار والجدال والمناقشة ، ثم طبقه الرسول ﷺ بأفعاله وأقواله ومواقفه ، وسار عليه من بعده سلف الأمة ، وهو منهج يقوم على أسس رصينة تحقق النزاهة ، والموضوعية ، والقوة والأصالة، والعدل والإحسان ، ولعل من أهم هذه الأسس ما يلي :

١– بيان الحق والدعوة إليه – كما جاء في قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١) .

(١) د راجع في هذا : أجنحة المكر الثلاثة ، ص ١٤٧ ، عبد الرحمن حبنكة ، والاستشراق والمستشرقون ، ص ٤٣ ، د / مصطفى السباعي ، والمستشرقون والتراث ، ص ٢٧–٤١ ، عبد العظيم الديب ، والمستشرقون وترجمة القرآن ، ص ١٠١–١٠٥ ، محمد صالح البنداق .

٢– مناقشة أتباع الأديان والملل والنحل والمذاهب المختلفة مناقشة موضوعية ، نزيهة ، تكشف عما فيها من وجوه الخطأ والزلل ، والزيف والبطلان ، وتبين الحق في ذلك ، والقرآن الكريم حافل بمثل هذه المناقشات .

٣– التزام الأدب والجدال بالتي هي أحسن للوصول إلى الحق . قال تعالى : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٢) .

٤– تحري العدالة والإنصاف في الدراسة والبحث في شتى المجالات مع كل الناس ، بهدف نشدان الحقيقة حتى ولو كان ذلك مع المخالفين لنا في الدين – كما قال تعالى : ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٣) ، وهذا هو المنهج المطلوب في مواجهة المستشرقين تصحيحاً وتقويماً لأخطائهم الفادحة حول حقائق الإسلام .

٥– ضرورة الأمانة والدقة في النقل : فقد دأب علماء المسلمين في بحوثهم ودراساتهم على مراعاة الأمانة العلمية ، والدقة المتناهية في النقل عن الآخرين ، ويؤكد بعض الباحثين هذه الحقيقة بقوله : " كان العلماء المسلمون يشددون على ضرورة الأمانة والدقة في النقل ، ففي مقدمة كتاب " معجم البلدان " يقول مؤلفه : " انه كان ينقل عن المصادر بكل دقة وأمانة ، سواء أكان المنقول حقاً أم باطلاً . فإن الصدق في إيراده – كما يقول ياقوت الحموي – له أهميته في البحث العلمي عند العلماء – لأنه ييسر للطالب اطلاعه على آراء أهل الخبرة في ذلك العلم ، وأما النقل عن الذاكرة فلم يكن نقلاً أميناً "(٤) أ.هـ ،

(١)سورة آل عمران : ٦٤ .

(٢)سورة العنكبوت : ٤٦ .

(٣)سورة المائدة : ٨ .

(٤)انظر : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ، ص ١٢١ ، د / فرانتز روزنتال ، ترجمة د/ أنيس فريحه ، ومراجعة د / وليد عرفات ، طبعة ثالثة ، ١٩٨٠ م – ١٤٠٠هـ ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت ، لبنان .

ونجد هذا المعنى واضحاً أشد الوضوح في علمي الحديث والفقه – كما يقول أحد الباحثين : " فقد كانا يستندان في الدرجة الأولى على الدقة والأمانة في ذكر المصدر المأخوذ عنه ، لأن الأسانيد هي جزء أصيل من مادة البحث ، وكل علم آخر له علاقة مباشرة بهذين العلمين (الحديث والفقه) تأثر إلى حد بعيد بالأسلوب المتبع في درسهما ومعالجتهما ، ومثال ذلك : كتب التراجم التي نشأت بدافع تدعيم علمي الحديث والفقه فإن أصحابها كانوا يعنون عناية خاصة بذكر المصادر التي يأخذون عنها ، وكان المؤلفون الذين يحرصون على ذكر مصادرهم يشعرون بأنهم قاموا بما عليهم ، لأن العهدة في صحة الخبر أو كذبه تقع حينئذ على كاهل صاحب المصدر " (١) أ.هـ

وبهذه الطريقة الفريدة في البحث حرص علماء المسلمين الحرص كله على الحفاظ على الأفكار والأخبار التي كانوا يعتقدون أن لها قيمة فعلية بالرغم من صعوبة إثباتها في المصادر.

ويقول الأستاذ / أنور الجندي في تقرير هذا المعنى : " كان من أعظم ما قصد إليه مفكرو الإسلام في سبيل توثيق النص وحمايته من هجوم خصوم الإسلام والغزو : هو إنشاء علم الجرح والتعديل، أو علم أسماء الرجال ، وهو يكشف في الحقيقة ميزان دقيق يكسف عن خصائص الباحثين والثقات بصفاتهم ، ويجعل من سواهم موضع الشك والريبة ، ومن ثم فلا يؤخذ العلم منهم " (٢) أ.هـ

ومن ثم – فقد حاول العلماء المنصفون إبراز هذه المنهجية والموضوعية العلمية التي اعتمد عليها العلماء المسلمون لبيان ما توفر لديهم من ترابط بين مناهج البحث ، ولمعرفة مدى انطباقها على الواقع العلمي الصحيح ، ومدى تطبيقها على كافة العلوم الطبيعية والكونية ، " وقد وضحت هذه المنهجية العلمية أيما إيضاح عند علماء المسلمين في شتى العلوم ، فلم يقبلوا نظرية إلا بعد التثبت منها ، وساروا في مختلف فروع المعرفة الإنسانية على أسس علمية تقرب من الأسس الحديثة ، بما احتوته من أسلوب التفكير العلمي السليم ، والدقة والاستنتاج – وبما هو محل تقدير المنصفين من العلماء المعاصرين ، وكذلك تميز

(١) المرجع السابق ، ص ١١٥ ، بتصرف يسير .

(٢) انظر: الشبهات والأخطاء الشائعة في الأدب العربي والتراجم والفكر الإسلامي ، ص ١١٥ ، للأستاذ أنور الجندي .

التفكير الإسلامي بالموضوعية ، ودعا علماء الإسلام إلى الالتزام بالأمانة العلمية، والتجرد الموضوعي ، والبحث عن الحقيقة " (١) .

ثم إن المؤرخين المسلمين – قد بذلوا جهوداً كبيرة– في تقصي مدى تأثير علم مصطلح الحديث في تطور النقد التاريخي، " فقد أدت العناية بالحديث النبوي إلى ظهور هذا العلم ، ووضعت القواعد الدقيقة الصادقة لقبول الأحاديث النبوية، كما أقيمت الموازين العادلة لتصحيح الأخبار . فأعجب بهذا العلم علماء الفنون المختلفة ، وقد حاول المؤرخون في صدر الإسلام تطبيق قواعد هذا العلم لتحقيق النقد التاريخي ، وقد كتبت مؤلفات كثيرة في هذا العلم قديماً وحديثاً، ووضعت قواعد عامة تعتبر منهجاً متميزاً – في التفكير العلمي عند المسلمين – وهي في الحقيقة مستمدة من التشريع الإسلامي " (٢) .

هذا هو المنهج السليم ، والطريق القويم في إبراز الحقائق العلمية عند المسلمين ، وهذه هي الأسس الرصينة المحكمة التي اعتمد عليها علماء الإسلام في نقد الأخبار ، وتمييز صحيحها من ضعيفها ، وهي في الواقع أسس سليمة لا يستطيع أن يكابر في عمقها وقوتها وكفايتها أي مفكر منصف ، ومعاملة المستشرقين بمثل هذه الأسس ، ووزنها بمثل هذه المعايير – أمر واجب – في دراساتهم عن الإسلام ، ولكن متى يتمسك المستشرقون بمثل هذه القواعد والأصول العلمية التي سار عليها المسلمون ولا يزالون – في شتى مجالات العلوم ، أين المستشرقين الذين يزعمون خدمة العلم ببحوثهم ودراساتهم – قد ضربوا بهذه الأصول العلمية والمنهجية عند المسلمين – ضربوا بها عرض الحائط، وسبحوا في ظلمات التعصب والهوى بدافع الكراهية الشديدة للإسلام والمسلمين .

فهذا هو : " توماس كارلايل " وهو من المستشرقين الذين وصفوا بالإنصاف

(١)انظر : البحث العلمي مناهجه وتقنياته ، ص ٢٠-٢١ ، د / محمد زيان عمر ، طبعة رابعة ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م ، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع ، جدة ، السعودية ، بتصرف .

(٢)المرجع السابق ، ص ٢٤-٢٦ ، باختصار ، وراجع أيضاً : مناهج البحث ، ص ٨-٩ ، د/غازي حسين عناية ، طبعة ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م، الناشر : مكتبة مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، بتصرف .

يلقي خطاباً سنة ١٨٤٠م يدعو فيه بني وطنه إلى أن يتركوا طريق الأوهام والخرافات التي اشتهرت عنهم في الأوساط النصرانية المحرفة حول شخصية سيدنا محمد ﷺ ، وما قيل فيه من الأقاويل التي لا يقبلها الواقع ولا التاريخ"[١] إلى أن قال : " ولكن صرحاء في اعترافنا بالواقع ، ولنقل أن محمداً كان صادقاً في قوله ... مخلصاً في دعوته ، وأن الدين الذي دعا إليه هو دين على مستوى الأديان ، ولقد حاول سلفنا (يقصد إخوانه من المستشرقين السابقين) حاولوا عبثاً أن يحيطوا شخصية محمد بإطار من التحقير ، والإسلام بإطار من الخرافات والجهل . فالعلم متطور ، وحب الإطلاع والمعرفة في تقدم مستمر ، وهذه القصص التي ألفناها عن الإسلام . وعن محمد سوف لا تضر إلا بنا (يعني المستشرقين) فلنغير اتجاهنا نحو الإسلام فإنه ينفعنا " (٢) .

ولا أستطيع أن أجد تفسيراً لهذا الاتجاه الذي قصد إليه هذا المستشرق – سوى – الدعوة إلى تعديل خطة البحث الاستشراقي ولا سيما في هذا العصر – إلى الأسوأ – ضد الإسلام ، ومحاولة تشويه صورته على أيدي هؤلاء المستشرقين ، وهكذا نستطيع أن نشم من هذا الخطاب رائحة التعصب والحقد الأعمى الذي يتغلغل في نفوس المستشرقين تجاه الإسلام ورسول الإسلام ﷺ ، فإذا ما أراد المستشرقون الإنصاف حقاً – كما يزعمون – فليلتزموا بمثل ما التزم به المسلمون في مراعاة الدقة والأمانة والإنصاف العلمي .

****

****

****

(١) الإسلام والمستشرقون ، ص ١٧٢ ، بتصرف.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

المبحث الرابع

الإسلام في تصورات بعض المستشرقين

على الرغم من ثبات الصورة الحقيقية للإسلام عند المسلمين ، ووضوحها لهم كوضوح الشمس في رابعة النهار ، إلا أننا نجد تضارباً وتناقضاً لتلك الصورة عند المستشرقين المتعصبين بصفة عامة ، وبعض المستشرقين الذين وصفوا بالموضوعية والإنصاف المطلق ، دون مراعاة للدقة والحيطة والحذر في كل ما يصدر عن هؤلاء مما يجعلنا نطرح بعض التساؤلات التي لا بد منها في نقد المنهج الاستشراقي على النحو التالي : هل يمكن أن يتصف هؤلاء المستشرقين بالموضوعية والإنصاف مطلقاً ؟ ، وهل يمكن أن توصف دراساتهم بأنها محاولات جادة نحو فهم الإسلام ، أو أنهم يقومون بها بدون تأثير عوامل اقتصادية أو دينية أو سياسية بل لمجرد ذوقهم وشغفهم بالعلم ، وما إلى ذلك من العبارات التي لا تنطوي على حقائق بل على مزاعم توافرت على دحضها الأدلة العلمية ، والشواهد الموثقة من مؤلفاتهم نفسها ، وللإجابة عن هذه التساؤلات العديدة سأكتفي هنا بذكر ثلاثة فقط من المستشرقين الذين تتردد أسماؤهم على الألسنة ، ويصفهم البعض بالموضوعية والإنصاف ، بل وأحياناً ما تعترف بعض الأقلام بإسداء هؤلاء المستشرقين بعض الخدمات والجهود العلمية للإسلام والمسلمين ، وعلى رأس هؤلاء المستشرقين (فينسيك) الذي أحيط اسمه من جانب البعض بالمبالغات في المدح والثناء عليه لمجرد إشرافه على إخراج المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف (١) ، ولذلك سوف أبدأ بذكر هذا المستشرق وأخصه بدراسة محايدة حتى تتضح الرؤية حول موقفه الحقيقي من الحديث النبوي (المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن) ويليه بمشيئة الله تعالى ذكر غيره من المستشرقين (٢) ، وذلك على النحو التالي :

(١) انظر : رؤية إسلامية للاستشراق ، ص ٨٣ ، د / أحمد عبد الحميد غراب ، بتصرف . وانظر : الاستشراق والمستشرقون ، ص ١٧٤ ، وما بعدها : تأليف : نخبة من العلماء المسلمين ، طبعة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م،نشر عالم المعرفة ، جدة ، السعودية .

(٢) اكتفيت هنا بذكر ثلاثة نماذج فقط من المستشرقين الموصوفين بالإنصاف على سبيل المثال لا الحصر ، ولم استطع استقصاءها جميعا نظرا لضيق مساحة البحث ، ولعل الله تعالى يهيئ لنا فرصة أخرى قريبة لاستكمال ما فاتنا في بحث أو كتاب آخر.

أولاً :المستشرق (أ.ج فينسنك A.J.Wensink) :

وهو مستشرق هولندي الجنسية ، عدو لدود للإسلام ونبيه ﷺ ، كان يعمل أستاذاً للغة العربية بجامعة ليدن ، وتوفي سنة ١٩٣٩م ، وكان عضواً بالمجمع اللغوي المصري ، ثم اخرج منه على أثر أزمة أثارها الدكتور الطيب حسين الهواري مؤلف كتاب (المستشرقون والإسلام) بعد أن نشر (فينسيك) رأيه في القرآن والرسول ﷺ مدعياً أن الرسول ألف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التي سبقته [1]، كما هي عادة المستشرقين في تصوراتهم عن الإسلام ، والرسول ﷺ ، والقرآن الكريم .

كما نسب إليه انه صاحب المبادرة إلى وضع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، وقد خرج هذا المعجم في ثمانية أجزاء وظهر الأول منها سنة ١٩٣٦م ، والأجزاء الأخرى بعد وفاته وظهر الجزء الثامن والأخير سنة ١٩٦٩م ، وأشرف على إخراجه بعد وفاة (فينسيك) عدد من المستشرقين وقد كثرت الإشادة بهذا المعجم حتى خرج عن قيمته الحقيقية إلى الاستدلال به دائماً على موضوعية المستشرقين ،وإنصافهم للعلم وللإسلام[2] ومن ثم كان لزاماً عليَّ أن أنبه إلى عدة حقائق حول هذا المعجم ، وحول صاحب الفكرة في إخراجه وهو المستشرق (فينسيك) كما يلي :

المعجم وسيلة وليس غاية :

بادئ ذي بدء لا ننكر أهمية هذا المعجم في خدمة الحديث النبوي الشريف، حيث يرجع إليه الكثير من العلماء والباحثين في تخريج أحاديث الرسول ﷺ . أما انه نافع أو ضار فهذا أمر يمكن أن يتضح من خلال تحديد الهدف من استعماله . فالمسلم يستعمله في الرجوع إلى تحديد مواطن أحاديث الرسول ﷺ في مصادرها الأصلية من كتب السنة للاهتداء بها ، والعمل بمقتضاها ، والدعوة إلى إتباعها ، وبهذا تتحقق الفائدة المرجوة منه ، أما

(١)انظر: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، ص ٤٤-٤٥ ، د / مصطفى السباعي نقلاً عن كتاب (المستشرقون والإسلام) ، ص ٧١ وما بعدها ، د / حسين الهواري .

(٢)رؤية إسلامية للاستشراق ، ص ٨٥ ، د / احمد غراب ، بتصرف .

المستشرق فيستعمله كأداة قريبة المنال للوصول عن طريقها بسرعة وسهولة إلى الأحاديث ، واستخدامها بعد إساءة فهمها والاستدلال بها للطعن في القرآن والسنة ، ولا شك أن فكرة وضع هذا المعجم عند فينسينك كانت لتحقيق هذا الهدف ، ولم تكن أبداً خدمة للعلم ، ولا لخدمة الإسلام والمسلمين فيما يبدو لي ، وأما انتفاع المسلمين به بعد ذلك فقد جاء عرضاً ، ولم يكن قط – في تقديري – هدفاً مقصوداً من المستشرقين ، وإلا لما اتعبوا أنفسهم في إعداده بهذه الصورة التي نراه عليها الآن [1].

ويخطئ البعض حين يزعم أن منهج المستشرقين في ترتيب مواد هذا المعجم حسب ألفاظ الحديث هو منهج ابتدعوه ، ولم يسبقوا إليه ، وفي الحقيقة أن هذا الزعم مردود فقد سبق إلى ذلك المنهج من قبل علماؤنا المسلمون . فهم أصحاب الفضل والسبق في هذا المجال ، وتكفي الإشارة إلى جامع الأصول لابن الأثير وتحفة الأشراف للحافظ المزي ، وغيرها من جوامع الحديث النبوي الشريف ، كما انه من الإنصاف أن نعترف بما قام به العلامة المسلم الأستاذ / محمد فؤاد عبد الباقي – رحمه الله – من جهود مخلصة وإسهامات عظيمة لإعداد هذا المعجم وترتيبه ، وهي الإسهامات التي مكنته من المعرفة الواسعة بالسنة النبوية ، وتحقيقه لعدد من أهم كتبها [2]. ومن ثم – فهل كان من الممكن أن يتم هذا المعجم بدون خدمة هذا العالم المسلم للسنة ؟ !!.

ثانيا : المستشرق(هارديان ويلاند)

وهو مستشرق هولندي عمل أستاذاً للغات الشرقية في جامعة (أوترشت) بهولندا ، واشتهر عنه انه من المستشرقين المنصفين ، وقد صدر له كتاب باللغة اللاتينية عن الإسلام عام ١٧٠٥م بعنوان (الديانة المحمدية) في جزأين عرض في أولهما : العقيدة الإسلامية معتمداً على مصادر بالعربية وأخرى باللاتينية وفي ثانيهما : قام بتصحيح الآراء الغربية التي كانت سائدة عن تعاليم الإسلام ، وقد أثار هذا الكتاب اهتماماً عظيماً لدرجة أدت إلى إثارة الشبهات حول هذا

(١)المرجع السابق ، ص ٨٦ ، بتصرف يسير .

(٢)رؤية مشتركة للاستشراق ، ص ٨٨-٨٩ ، د/احمد غراب ، بتصرف .

المستشرق باتهامه بأنه يريد القيام بعمل دعائي لصالح الإسلام – في حين – انه لم يقصد إلا إلى الوصول إلى فهم الدين الإسلامي ممهداً بذلك السبيل إلى محاربته في نفس الوقت من جانب المسيحية الحالية بطريقة أفضل من ذي قبل ، ولكن الكنيسة

الكاثوليكية أدرجت هذا الكتاب في قائمة الكتب المحرم تداولها [١] ، [٢] .

وعلى الرغم من ذلك فقد ترجم الكتاب إلى عدة لغات كاللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية والهولندية والأسبانية ، ويشير (ريلاند) في مقدمة الكتاب إلى ما تتعرض له كل الأديان باستمرار من جانب خصومها : إما بعدم فهمها ، أو برميها بكل سوء بطريقة تنبئ عن قصد خبيث وقد تعرض الإسلام إلى مثل ذلك من جانب خصومه مثلما تعرضت الأديان الأخرى . ولهذا يصرح (ريلاند) بقوله: " فلم يحدث أن تعرض دين من الأديان في هذا العالم في أي عصر من العصور إلى مثل ما تعرض له الإسلام من جانب خصومه من الاحتقار والتشويه والوصف بكل أوصاف السوء ، وقد وصل الأمر إلى حد أن من يريد أن يصف نظرية من النظريات بوصف مشين يصفها بأنها (نظرية محمد) كما لو كان الأمر أنه لا يوجد في تعاليم محمد شيء صحيح ، وأن كل ما فيها فاسد ، وإذا أبدى احد رغبة صادقة في التعرف على الإسلام لا تقدم له إلا الكتب المضادة الخبيثة والمليئة بالضلالات " ثم يضيف (ريلاند) بعد ذلك قائلاً : " ينبغي على المرء بدلاً من ذلك أن يتعلم اللغة العربية وان يسمع محمداً نفسه وهو يتحدث في لغته ، وينبغي على المرء أن يقتني الكتب العربية، وأن يرى بعينه لا بعيون الآخرين وحينئذ سيتضح له أن المسلمين ليسوا مجانين كما نظن فقد أعطى الله العقل لكل الناس وقد كان في رأيي دائماً أن ذلك الدين (يقصد الإسلام) ليس ديناً ماجناً، أو ديناً سخيفاً كما يتخيل كثير من المسيحيين [٣] .

(١) انظر : الإسلام والمستشرقون ، ص ٧٧ ، وانظر : رؤية إسلامية للاستشراق ، ص ١٠٥ ، وانظر كذلك : الإسلام والاستراق ، ص ٨-٩ ، د / محمود زقزوق ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، ١٠٤هـ – ١٩٨٤م .

(٢) فليلاحظ القارئ الخطأ العلمي الفادح الذي وقع فيه هذا المستشرق – حين عنون لكتابه بـ (الديانة المحمدية) حيث يريد بهذا العنوان نسبة الإسلام إلى سيدنا محمد ﷺ لا إلى الوحي الإلهي المنزل عليه من الله تعالى .

(٣) الإسلام والمستشرقون ، ص ٧٨ ، وانظر : رؤية إسلامية للاستشراق ، ص ٣٣ – ٣٤ .

لكن يحاول (ريلاند) بعد ذلك كله – أن يقلب الحقائق الثابتة رأساً على عقب ويعلن عن سوء نيته وإن كان يذكر في عداد المنصفين ، فيقول : " صحيح أن الدين الإسلامي دين سيء جداً وضار بالمسيحية إلى حد بعيد ، ولكن أليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحثه ؟ ألا ينبغي للمرء أن يكشف أعماق الشيطان وحيله ؟ إن الأحرى أن يسعى المرء للتعرف عليه حقيقة ، لكي يحاربه بطريقة أكثر أماناً وأشد قوة " [١] .

وهكذا – يتبين لنا بكل وضوح – كيف أعلن هذا المستشرق الذي اشتهر بالإنصاف – عن هدفه الحقيقي من تأليفه لهذا الكتاب ، فهو يحاول في أول كلامه الدفاع عن الإسلام بأنه ليس ديناً ماجناً ولا سخيفاً ولكنه مع ذلك يطعن فيه فيزعم أنه – والعياذ بالله – دين سيء جداً وضار بالمسيحية إلى حد بعيد كما يدعي ، مع أن الإسلام في الحقيقة هو الدين الوحيد الذي أعلن تقديره لعيسى وأمه ، فأما عن عيسى عليه السلام فهو وجيه في الدنيا والآخرة ، وأما أمه فهي صديقة ووجود عيسى عليه السلام نفسه هو جزء من إيماننا نحن المسلمين ، وكذلك براءة أمه وطهرها جزء من الإيمان ، ثم إن الإسلام لم يقف من عيسى عليه السلام ولا من أمه – موقف اليهود الذين ما زالوا على موقفهم إلى الآن منهما افتراءاً وبهتاناً ، وأما الإسلام فإنه مجدهما وما زال مستمراً في تمجيده هما وبعد : فماذا لقى المسلمون من المسيحيين في مقابل ذلك ؟ !! [٢] .

ثالثاً : المستشرق (جوستاف لوبون)

اشتهر عنه في معظم الأوساط العلمية انه من المستشرقين المنصفين ، وهو مستشرق فرنسي وصفته بعض الموسوعات العربية بأنه منصف للإسلام ، كما وصفته بأنه فيلسوف مادي لا يؤمن بالأديان مطلقاً [٣] . وعلى الرغم مما كتب عن الإسلام ، واعترافه ببعض الحقائق الثابتة عنه ، ولا سيما في كتابه الشهير (

(١) المرجع السابق ، ص ٧٨ ، والإسلام و الاستشراق ، ص ١٠ ، د / محمود زقزوق .

(٢) انظر : أوروبا والإسلام ، ص ١٨٤ ، للإمام الدكتور / عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق – رحمه الله – الطبعة الثالثة ، ١٩٨٦م ، نشر دار المعارف بالقاهرة .

(٣) انظر : رؤية إسلامية للاستشراق ، ص ١٣٠ ، د / أحمد غراب ، نقلاً عن : الموسوعة العربية الميسرة ، ص ٣٥ ، بتصرف .

حضارة العرب) إلا أنه وقع في أخطاء فادحة أثناء معالجته العلمية في هذا الكتاب ، ومن أخطر ما جاء في كتابه (حضارة العرب) إنصافه للحضارة العربية الإسلامية التي دافع عنها وأعجب بها ، وبين ما لها من أثر في الحضارة الغربية ، لكن الحقيقة أنه خلط في هذا الإنصاف بذكر بعض الافتراءات والمفاهيم الخاطئة عن : القرآن والرسول ﷺ ، وعن الشريعة الإسلامية ، فيحس القارئ لكتابه هذا – بنزعة التحامل والبعد عن الموضوعية (١) .

ومن هنا كان من الواجب العلمي أن نستعرض بعض الهفوات والهنات التي تورط فيها هذا المستشرق ، والتي دس من خلالها السم في العسل كما فعل إخوانه المستشرقين من قبل ، وذلك على النحو التالي :

(أ) جوستاف لوبون وكتابه حضارة العرب :

لقد ألف هذا المستشرق الفرنسي كتابه عن حضارة العرب ونشره سنة ١٨٨٤م ، والسؤال الذي يلح على الباحث المسلم هنا هو : لماذا لم يجعل هذا المستشرق المنصف عنوان كتابه مثلاً (حضارة الإسلام أو الحضارة الإسلامية) لو كان منصفاً حقاً كما يدعي ؟ ألم يكن من الأصوب أن يكون عنوان الكتاب (حضارة الإسلام) ، والجواب فيما يبدو هو أن المستشرق يقصد من تأليفه لهذا الكتاب وبنفس العنوان إلى عدة أهداف تلتقي كلها حول عدم إنصافه للإسلام(٢) ، وأهمها ما يلي:

الهدف الأول : إنكار أن يكون الإسلام رسالة عالمية أو حضارة عالمية :

فالإسلام في زعمه دين خاص بالعرب وحدهم ، وحضارته حضارة العرب ، بل وشريعته كما يزعم مختارة من نظم العرب الجاهلية ، ومعنى ذلك إن الإسلام ليس كما يدعي ديناً عالمياً للناس كافة بل هو للعرب فقط ، ثم يدعي بعد ذلك أن تشريعات القرآن في شمولها للدين والسياسة والقوانين المدنية كانت ملائمة للعرب وقت ظهور الإسلام فقط ، ولكن بعد بضعة قرون لم تعد ملائمة لاحتياجات الإنسانية المتغيرة وهذا ما أشار إليه بقوله " وعاد القرآن الذي لازم مشاعر الأمة

(١)انظر : منهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية ، ج١ ، ص ٣١ ، من مقال للدكتور/ التهامي نقرة بعنوان القرآن والمستشرقون .

(٢)رؤية إسلامية للاستشراق، ص ١٣١ ، د/غراب .

العربية واحتياجاتها أيام محمد ملائمة تامة – غير ما كان عليه بعد بضعة قرون"(١) .أ.هـ

وأما الشريعة الإسلامية فيزعم المستشرق (لوبون) أن الرسول ﷺ قد اختار قوانينها من نظم العرب في الجاهلية فيقول " عرف محمد ﷺ كيف يختار من نظم العرب القديمة ما كان يبدو أقومها فدعمها بنفوذه الديني العظيم " (٢)

ثم يزعم بعد ذلك أن" شريعة محمد في فصولها غير الدينية هي خلاصة عادات قديمة "(٣) .

يا للعجب كل العجب من هذا الهراء ، وهل في الشريعة الإسلامية فصول دينية وغير دينية ألم تكن الشريعة الإسلامية متكاملة ومترابطة في كل أحكامها ؟ !!

الهدف الثاني : إنكار أن يكون للإسلام دور في بناء الحضارة الإسلامية : حيث يتضح هذا الهدف من خلال القراءة المتأنية لعنوان الكتاب ، فهو يريد أن ينسب الفضل في قيام الحضارة الإسلامية وتأثيرها الإيجابي ونوابغ في العالم ، يريد أن ينسبه إلى العرب وحدهم ويتجاهل عن عمد أي توجيه أو أثر للإسلام في صنع هذه الحضارة ، وهذا هو عين ما صرح به في كتابه بقوله : " ولا ريب في أن العرب الذين استطاعوا في أقل من قرن أن يقيموا دولة عظيمة ، ويبدعوا حضارة جديدة ، من ذوي القرائح ... تتم بالوراثة ، وبثقافة سابقة عن الإسلام مستمرة بعده ، وبالعرب لا بأصحاب الجلود الحمراء أو الأستراليين ... خلفاء محمد من تلك المدن الزاهرة التي ظلت ثمانية قرون مراكز للعلوم والآداب والفنون في آسيا وأوربا "(٤) ، ثم يخطئ القصد بعد ذلك في بيان تأثير الحضارة الإسلامية على العالم فيزعم أن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم لا يشاركهم فيه احد فيقول : " إنه كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم في العالم ، وأن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم " (٥) .

(١)انظر : كتاب حضارة العرب ، ص ٣٩٤ جوستاف لوبون ، ترجمة : عادل زعيتر ، طبعة ١٩٦٩م ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة

(٢)انظر كتاب حضارة العرب . لجوستاف لوبون ص ٣٨٤ .

(٣)المرجع السابق نفس الصفحة

(٤)المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٥)السابق ، ص ٥٧٩ ، باختصار

وهنا يحق لنا أن نقول : لو كان لدى هذا المستشرق أي توجه مخلص لرؤية الحق ، وتحري الإنصاف كما يشاع عنه – لأدرك بكل وضوح أن قيام الحضارة الإسلامية وتأثيرها في العالم – قد شارك فيه المسلمون من كل الأجناس الشعوب التي اعتنقت الإسلام من العرب وغير العرب ، ومن ثم كانت الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية عالمية ، ولا يمكن أبداً أن تكون خاصة بجنس من الأجناس أو شعب من الشعوب فقط .

وكان الإسلام ولا يزال هو العامل الأول الذي دفع كل الأجناس والشعوب في الأمة الإسلامية إلى المشاركة العلمية والعملية في إقامة تلك الحضارة الإسلامية المتميزة عن غيرها من الحضارات [1] .

الهدف الثالث : يتمثل في تشجيع النزعة القومية عند العرب لتوسيع هوة الفرقة بين المسلمين ، وهدم ما تبقى من مظاهر الوحدة الإنسانية : فيتحدث هذا المستشرق عن العرب كما يتحدث دعاة القومية العربية، فيرفع من شأنهم ولكن بفضل العرق لا بفضل الإسلام عليهم ، وبناء على ذلك – فينبغي أن نسأله (جوستاف لوبون) عن رأيه في حجم الدور الحضاري الذي قام به العرب في أوروبا ؟ فنراه يحدد حجم هذا الدور فيقول : إن أجل خدمة قدمها العرب للنهضة الأوروبية كانت في نقل التراث اليوناني والفلسفة اليونانية والعلوم اليونانية إلى الأوروبيين عن طريق الترجمة ، وهذا بعض ما يشير إليه بقوله " والحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد ، وبفضل هذه الترجمة اطلعنا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أهلها ، وأنه إذا كانت أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم (أي التراث اليوناني وفلسفتهم وعلومهم) فالعرب هم تلك الأمة ... فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنيعهم " [2] ، ولا حظ أيها القارئ الكريم مدى التلاعب المقصود في اعترافات هذا المستشرق، حيث لم يصرح أولا يريد أن يصرح بأن الفضل في كل هذا التأثير الحضاري يرجع إلى الإسلام والمسلمين وليس إلى العرب

(1) انظر : رؤية إسلامية للاستشراق ، ص ١٣١ – ١٣٢ ، د / غراب ، بتصرف .

(2) حضارة العرب ، ص ٥٦٨ ، جوستاف لوبون . ترجمة : عادل زعيتر ، باختصار .

وحدهم ، وانظر إلى شدة عزمه وإصراره على تكرار لفظة العرب في كل شهادة يعلنها .

(ب) **جوستاف لوبون وموقفه من الوحي الإلهي** :

لم يستطع هذا المستشرق رغم ما يدعيه من الإنصاف للإسلام – لم يستطع فهم موضوع الوحي الإلهي المنزل على رسول الله ﷺ – الفهم الإسلامي الصحيح – فلو كان منصفاً حقاً لأقر بإمكانية تنزل الوحي وسلّم بها تسليما ، ولكنه خلط خلطاً واضحاً حين وصف ظاهرة الوحي الإلهي ، وما كان يعتري النبي ﷺ أثناء تلقيه الوحي من أحوال خاصة كانت تقتضيها طبيعة الوحي الإلهي – وصفها بالهوس والصرع أو نحو ذلك مما يتنزه عن مثله جميع رسل الله وعلى رأسهم سيدنا محمد ﷺ وهذا ما صرح به (جوستاف لوبون) بقوله : " قيل أن محمداً كان مصاباً بالصرع ، ولم أجد في تاريخ العرب ما يجيز القطع بذلك ، كل ما في الأمر أنه كان إذا نزل الوحي عليه اعتراه احتقان فغطيط فغثيان ، وإذا عدوت هوس محمد ككل مفتون وجدت حصيفاً سليم الفكر – ثم يقول بعد ذلك زاعماً : ويجب عد محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العملية كأكبر مؤسس الديانات " [1] .

ومن الواجب هنا أن نتساءل : أليس من مجازفة القول أن يعد (لوبون) محمداً ﷺ – من المتهوسين ؟ ثم إنه لم يثبت تاريخياً قبل البعثة ولا وبعدها أنه ﷺ كان من ذوي الوساوس أو التصرفات الغريبة كما زعم ذلك المستشرق المخادع، ثم ألم تشهد أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها بصدقه ﷺ ، وتعرفه بحقيقته لما جاءه الحق ، وهو في غار حراء يتعبد لربه ، لتدفع عنه الخوف مما رأى وسمع حين قالت كما جاء في الحديث الشريف: " كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق " [2] . ، وبعد :

فما أبعد الكمال الإنساني الذي تجسد في كيان وشخصية رسول الله ﷺ ما أبعده عن الهوس الذي قد يملي على صاحبه مواقف غريبة وأفعالاً ينبو عنها

(1) انظر : مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية ، ص ٢٨-٢٩ ، الجزء الأول، نقلاً عن : حضارة العرب ، ص ١٤١-١٤٥ ، جوستاف لوبون ، باختصار .

(2) رواه البخاري في صحيحه .

الذوق السليم والفطرة النقية الطاهرة ، ولكنه الجهل بحقيقة الدين والوحي ، والجهل باستعمال المنهج العلمي الصحيح في البحث عن مثل هذه الموضوعات التي لا يستطيع المستشرقون استيعابها أو فهمها الفهم الصحيح .

(ج) جوستاف لوبون وموقفه من الرسول ﷺ.

لم يكن جوستاف لوبون منصفاً أيضاً حين كتب عن حياة محمد ﷺ وأخلاقه ، بل حاول بقلمه توجيه بعض المزاعم والأباطيل حول شخصية وسيرة رسولنا ﷺ ، ولا سيما فيما يتعلق بمسألة تعدد زوجاته ﷺ ، فقد جاء في كتابه ما نصه : " وضعف محمد الوحيد هو حبه للنساء ، وهو الذي اقتصر على زوجته الأولى حتى بلغ الخمسين من عمره ، ولم يخف محمد حبه للنساء فقد قال (حبب إليّ من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة) [1] . ثم يتابع المستشرق افتراءاته الظالمة فيقول : " ولم يبال محمد بسن المرأة التي يتزوجها فتزوج عائشة وهي بنت عشر سنين وتزوج ميمونة وهي في الحادية والخمسين من سنيها .... " [2] أ.هـ

الحكمة من تعدد أزواج النبي ﷺ:

ونظراً لهذا الفهم الخاطئ الذي وقع فيه بعض المستشرقين ، فمن الواجب العلمي أن نذكر بعض الحكم لتعدد أزواجه ﷺ – لتتضح الحقائق لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد – وقبل إيضاح هذه الحكم لا بد من التأكيد على حقيقتين مهمتين كما يلي :

الأولى : إن الجمع بين عدة زوجات كان موجوداً وشائعاً في البيئة الإنسانية والعربية قبل الإسلام ، ومما يدل لذلك " أن غيلان بن أسلمه الثقفي أسلم وتحته عشر زوجات ، وأن الحارث بن قيس حين أسلم كان عنده ثمانية من النسوة ، وقد أمرهما الرسول ﷺ أن يختارا أربع ويفارقا سائرهن ، ولقد كان كثير من العرب يعددون ولا يرون في

(1) أخرجه النسائي في سننه ، جـ٦١/٧ ، كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء ، تحت رقم ٣٩٣٩ من حديث سيدنا أنس ﵁ ، ولفظه : (حبب إلي من الدنيا : النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة) ، وأخرجه أحمد في مسنده جـ٥٤/٣ رقم ٥٧٧٢ ، والبيهقي في السنن الكبرى من كتاب النكاح باب الرغبة في النكاح، جـ٧٨/٧ رقم ١٣٢٣٢ .

(2) انظر : حضارة العرب ، ص ١١٢، جوستاف لوبون ، باختصار .

ذلك حرجاً " [1]، فلماذا رأى أعداء الإسلام النبي ﷺ وحده ، ولم يروا العصر قبله ، ولماذا خصوا الرسول ﷺ بالذكر، ولم ينظروا إلى التعدد الذي رافق أنبياء التوراة عبر التاريخ ؟ !!

الثانية : إن زواج الرسول ﷺ بأكثر من واحدة كان بالمدينة المنورة في سن الكهولة . فمن المعلوم تاريخياً أنه ﷺ لم يتزوج بعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها إلا سودة بنت زمعة وإلى أن هاجر إلى المدينة ، ولم يعدد ﷺ إلا بعد أن ولدت الدولة الإسلامية ، وقامت على أرجلها قوية متينة ، وكان لهذا التعدد أغراض إصلاحية وتشريعية ، وتعليمية ، وسياسية ، وغير ذلك .

ومن الثابت في التاريخ أيضاً أن الرسول ﷺ قد تزوج بالسيدة خديجة رضي الله عنها وهو شاب في الخامسة والعشرين من عمره ، وكانت ثيباً سبق لها الزواج وهي بنت الأربعين عاماً فعاشت معه رضي الله عنها خمسة عشر عاماً قبل البعثة وتوفيت قبل الهجرة بثلاث سنين ، وكان عمرها يومئذ خمسة وستين عاماً– فهل من المعقول أن نحكم على إنسان أنه شهواني – كما زعم جوستاف لوبون في كتابه – وهل يعقل أن يتهم ﷺ بالشهوانية ، وقد قضى زهرة شبابه وعنفوان رجولته بزواجه بامرأة تزيد على عمره بخمسة عشر عاماً ؟ [2].

ولا يتسع المجال هنا في هذا البحث للرد بالتفصيل على فرية الشهوانية التي يرددها المستشرقون ، ويكفي في هذه العجالة أن نتساءل :

كيف يكون شهوانياً من اقتصر على زوجة واحدة كانت تكبره بخمسة عشر عاماً حتى بلغ سن الكهولة ، وكيف يكون شهوانياً من كان كل زواج له بعدها وسيلة لنشر الإسلام وتطبيق تشريعاته ، وكيف يكون شهوانياً من أصبح سيد العالمين وإمامهم ، وقد مكن الله له في الأرض ومع ذلك يرفض حياة الترف ، ويؤثر حياة الزهد والقناعة ، ويفضل ما عند الله على ما عند الناس ؟ ثم يأمر زوجاته بعد كل هذا – بالتخيير بين الرضا بهذه الحياة أو الفراق . كيف

(1) دراسات في الاستشراق ، ص ٢٥٠-٢٥١، د / علي علي شاهين ، نقلاً عن : الإسلام الدين الفطري الأبدي ، جـ١ ، ص ٢٧٩ ، مبشر الطرازي الحسيني.

(2) المرجع السابق ، ص ٢٥٤ ، د / علي علي شاهين ، بتصرف .

يكون هذا الإنسان العظيم والرسول الكريم ﷺ شهوانياً ؟ كما يفتري هؤلاء المستشرقون من أمثال : جوستاف لوبون ممن يعتبرهم البعض من أكابر المستشرقين المنصفين (١) .

إذن فلماذا يسدد المستشرقون سهامهم وطعناهم لرسول الإسلام ﷺ وهم يعلمون الحقيقة في أجلى معانيها ، إنهم بهذا الفهم الخاطئ للحقائق الثابتة عن حياة نبينا محمد ﷺ – يريدون تحريف الكلم عن مواضعه . ليعلنوا عن حقدهم القديم ، وعداوتهم اللئيمة ، فإذا – عدد ﷺ – بعد أن جاوز الخمسين ودرج في سن الكهولة – لحكم اجتماعية وأغراض تشريعية – بعيدة كل البعد عن كل ما يزعمونه – يكون في تصورهم قد أتى ببهتان عظيم ، ثم نتسائل : من اللاتي تزوجهن ؟ ألسن كنّ ثيبات وأيامى ، وألسن كنّ عجائز وفقيرات ؟ (٢) .

وإذا كان الأمر كذلك – فلم هذه الإثارة والضجة ولم هذا الطعن والاتهام وخاصة ممن اشتهروا بالاتصاف والاعتدال من المستشرقين ، من أمثال (جوستاف لوبون) ؟ ، أليس يدل كل هذا على التعصب الأعمى ، والحقد الدفين ، والجهل المطبق بعظمة ومثالية رسولنا ﷺ ، ألم يقرأوا شهادة القرآن الكريم لنبينا ﷺ في قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٤) .

فياليت المستشرقين يتكلمون – حين يتهمون – بلسان الحق والمنطق ويا ليتهم حين يتقولون الأقاويل الكاذبة – يزنون الكلام والأمور بميزان العقل السليم ، والمنهج العلمي الصحيح .

ومن ثم يتضح من خلال هذا البيان المختصر بطلان فساد ما ادعاه –

---

(١) لمجرد كونه ألف كتابا عن الحضارة أشاد فيه بدور العرب في تشييد أعظم حضارة عرفها التاريخ على الرغم مما حفل به هذا الكتاب من أخطاء فادحة من أبرزها تجاهله التام لتأثير الإسلام في بناء هذه الحضارة .

(٢) دراسات في الاستشراق ورد شبه المستشرقين حول الإسلام ، ص ٢٥٤ ، د / علي علي شاهين.

(٣) سورة : القلم : ٤ .

(٤) سورة آل عمران : ١٥٩ .

جوستاف لوبون في كتابه على الرسول ﷺ – وثبت أن الحكمة من تعدد زوجاته ﷺ كانت لأغراض تعليمية وتشريعية ، ولأهداف اجتماعية ومقاصد سياسية (١) ، لا تخفى على كل من إطلع على سيرة النبي ﷺ – ولكن المستشرقين لا يفقهون .

خلاصة واستنتاج :

ونخلص من هذا العرض الموجز لبعض كتابات المستشرقين الذين وصفوا بالاعتدال والموضوعية في دراسة الإسلام إلى أن الدافع لذلك لم يكن علمياً خالصاً لدى جمهرة المستشرقين ، لأن من طبيعة البحث العلمي أن يكون نزيهاً عادلاً ، وحريصاً على استجلاء الحقيقة بتجرد وصدق وإنصاف ، لا تتحكم فيه موروثات معينة ، أو رواسب ثقيلة مما صنعتها البيئة الخاصة ، أو أملتها وقائع تاريخية معينة تتسم بتسجيل فترات الخصومات الدموية أو النزاع العدواني ، ولكن هذه الشروط التي تجعل دراسة الاستشراق للإسلام وتاريخه واللغة العربية – عملاً علمياً صحيحاً ليست متوفرة للمستشرقين الأوروبيين الذين اتجهوا للدراسة الإسلامية ، ومن ثم كانت استنتاجاتهم عن الإسلام تتسم بالمفاهيم الخاطئة ، والتأويلات الفاسدة ، وبهذا تسقط كل دعاوى العلمية أو الموضوعية في أعمال المستشرقين .

---

(٣) دراسات في الاستشراق ، ص ٢٥٤ – ٢٦٤ ، د / علي علي شاهين ، باختصار

المبحث الخامس
مواجهة المسلمين للتحدي الاستشراقي

علمنا مما سبق بعض الملامح العامة للفكر الاستشراقي ، وبعض الاتجاهات والتصورات التي سار عليها المستشرقون في بحوثهم ودراساتهم عن الإسلام ، والآن وبعد أن اتضحت الرؤية العامة لهذا الموضوع في تقديري – أرى أنه لابد من الكتابة عن ما هي واجباتنا نحن المسلمين لمواجهة هذا الخطر الاستشراقي الذي يتهددنا ويلاحقنا في كل مجال من مجالات الفكر الإسلامي تقريباً حتى نستطيع من خلال التنفيذ العملي لهذه الواجبات – أن ننفض عن كواهلنا أخطار وسلبيات الحركة الاستشراقية المعاصرة ، ولهذا يؤكد بعض الباحثين المعاصرين أثر هذا التحدي الاستشراقي في استنهاض عزائم المسلمين لمواجهة هذا الخطر بكل قوة وصلابة فيقول :

" لقد كانت التيارات الفكرية الأجنبية القديمة – التي كانت تمثل تحدياً للإسلام والفكر الإسلامي الأصيل في عصور الإسلام الزاهرة – كانت حافزاً قوياً للمسلمين في تلك الأيام الخوالي للوقوف أمامها بقوة وصلابة ، وقد كانت المواجهة على مستوى التحدي الأجنبي بل تفوقه . وقد هضم الفكر الإسلامي تلك التيارات هضماً دقيقاً ، واستوعبها استيعاباً تاماً ثم كانت له معها وقفته الصلبة وبنفس الأسلحة الفكرية"(1).

فالمواجهة إذن كانت في المقام الأول – مواجهة فكرية – ومن هنا كان على المسلمين ولا سيما في هذا العصر – الذي تطاولت فيه بعض أقلام المستشرقين بالتشويه والتشكيك في ثوابتنا الدينية – ورموزنا الإسلامية – كان عليهم إعلان المواجهة الصريحة والجريئة لهذا الهراء الاستشراقي ، ومعاملة هؤلاء المستشرقين بالمثل ، وذلك عن طريق تكثيف جهودهم في الدعوة إلى الإسلام في كل مكان بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن – كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (2) .... وكما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ

(1) انظر : الإسلام والاستشراق ، ص ٢٦-٢٧ ، د / محمود زقزوق ، طبعة أولى ، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م ، بتصرف .

(2) سورة النحل : ١٢٥ .

وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (1) ، وعليهم أيضاً أن يبينوا للعالم كله وبجميع اللغات الممكنة حقائق الإسلام ، وأن يدحضوا أباطيل خصومه بشتى الوسائل الدعوية سواء أكانت بالكلمة أم بالكتاب أم بالمجلة أم بالصحيفة بل وبالنشرات والمطبوعات التي تعد إعداداً جيداً لتخاطب هؤلاء القوم بالأسلوب الذي يناسبهم ، ويؤثر فيهم وليس المطلوب أي كلمة ولا أي كتاب ، بل المطلوب الدعوة الصحيحة بالحجة والبرهان حتى نقنع العالم كله بدعوتنا وعالمية رسالتنا ، وأنه لا دين غير الإسلام (2) ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (3) .

ومهما يكن من أمر فإن مواجهة المسلمين لتحديات الاستشراق : تحتاج فعلاً إلى بذل أقصى الجهود في شتى المجالات من جانب الأفراد والمؤسسات ، لإجهاض مخططات الفكر الاستشراقي المعارض للإسلام . فمكتبات العالم مليئة بإنتاج المستشرقين وبشتى اللغات الإنسانية ، ومئات المؤسسات التي ترعى الاستشراق ، وتعمل لخدمة المستشرقين ، وهناك آلاف العلماء والباحثين من الغربيين الذين يتفرغون لبحوثهم ودراساتهم ، وهناك المؤتمرات الاستشراقية العالمية التي تعقد بين الحين والحين حسب الحاجة ضد الإسلام والفكر الإسلامي .

ومما لا شك فيه أن هذه المواجهة الإسلامية للتحديات الاستشراقية ضرورة لا بد منها ، إن كنا نريد الحفاظ على عقائدنا التي جاء بها الإسلام ، وإن كنا نريد الحفاظ على ذاتيتنا وهويتنا ، ومواجهة الاستشراق في مجال بحوثه عن الإسلام تتطلب عدة إمكانات وطاقات مخلصة ، لرد هذه الطعون الاستشراقية حول الإسلام حتى لا يأتي علينا زمن نجد فيه أنفسنا نتحدث بألسنة غير ألسنتنا ، أو نردد ما يقوله المستشرقون دون وعي، أو دون أن نحس أننا مسلمون لنا عقائدنا وشخصيتنا (4) وحضارتنا المتميزة والمستقلة.

(1) سورة العنكبوت : ٤٦ .

(2) انظر : الإسلام في مواجهة أعدائه ، ص١٤ ، توفيق علي وهبه ، طبعة أولى ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م ، نشر دار اللواء للنشر والتوزيع ، الرياض ، السعودية ، بتصرف .

(3) سورة آل عمران : ٨٥ .

(4) انظر : الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي ، ص ٦٤ ، د / أحمد عبد الرحيم السايح ، باختصار .

واجبات المسلمين نحو الاستشراق :

لكي يستطيع المسلمون مواجهة خطر الاستشراق يجب عليهم إتباع وتنفيذ الخطوات التالية :

أولاً : الاستيعاب الشامل للإنتاج الاستشراقي في شتى اهتماماته البحثية عن الإسلام ، لأن هذا الاستيعاب المدروس لابد منه ، ولأن من حق الأمة الإسلامية أن يعرف أبناؤها ما يقوله الآخرون عنها في دينها وتاريخها وحضارتها ، ليكون أبناء الأمة على بينة مما يقوله أو يتقوله هؤلاء المستشرقون [1] .

ثانياً : العمل الإسلامي الجاد على بيان المصادر التي اعتمد عليها المستشرقون في كتاباتهم عن الإسلام ، وهل هي مصادر إسلامية أصيلة في الموضوع المزمع دراسته أو مصادر غير إسلامية ، لأن بعض المستشرقين المعاصرين يعتمد على ما ذكره المستشرقون السابقون كمصدر أساسي دون الرجوع إلى المصادر الإسلامية الأصيلة التي لا بد من الاطلاع عليها لمعرفة الصورة الصحيحة للإسلام .

(1) المرجع السابق ، ص ٦٤-٦٦ ، باختصار .

ثالثاً : بيان المنهج الذي التزم به هؤلاء الكاتبون الغربيون عن الإسلام ، لأن بيان مناهج المستشرقين سوف يكشف لنا عن أخطاء جسيمة في المنهج والنتائج التي تمخضت عنه ، وقد ثبت من خلال هذا البحث أن الدارس لمقولات المستشرقين في العقائد الإسلامية يجد فيها تخبطاً واضحاً مقصوداً ، وخروجاً صحيحاً عن البدهيات العقلية وهي لن تفعل فعلها في يقين المسلم إلا في حالات معينة من ذوي النفوس الضعيفة [2] .

رابعاً : علينا في إطار هذه المواجهة أن ننظر إلى حركة الاستشراق بكل جدية ، ونأخذ في حسابنا أن لها آثاراً خطيرة على قطاعات عريضة من المثقفين في العالم الإسلامي ، وفي العالم الغربي على السواء ، ولهذا كان لابد من التوفر على دراسة الاستشراق دراسة عميقة ، ولا يكفي أن نقول إن ما يكتبونه كلام فارغ . وهذا الكلام الفارغ مكتوب بشتى اللغات الحية ، ومنتشر انتشاراً واسعاً على مستوى عالمي ، ومن ثم كان لابد من مواجهته على نفس المستوى العالمي في إطار المنهج الإسلامي [3] .

(2) المستشرقون والسيرة النبوية ، ص ٦ ، د/ عماد الدين خليل ، طبعة سنة ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م ، دار الثقافة بالدوحة ، قطر ، بتصرف .

(3) انظر :الإسلام و الاستشراق،ص ٢٩ ، د/زقزوق .

خامساً : بدلاً من أن نظل نقتات ونقتبس من دائرة المعارف الإسلامية التي قام بإعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية – علينا – أن نقوم نحن المسلمين بإصدار دائرة معارف إسلامية باللغة العربية ، واللغة الأوروبية الرئيسية – لننقل من خلالها وجهة النظر الإسلامية الصحيحة في شتى فروع الدراسات الإسلامية والعربية إلى المسلمين وغير المسلمين على السواء ، لأن كل فراغ فكري لدينا لا نشغله بأفكار من عندنا يكون عرضة للاستجابة لأفكار منافية أو معادية لأفكارنا وثوابتنا فلا نلومنَّ عندئذ إلا أنفسنا [1] .

سادساً : ينبغي أن نزن كل ما كتبه المستشرقون بميزان اعتبار الأخبار ، وتمحيص الأقوال ، وبذل شتى المحاولات العلمية الجادة لعرض هذه الدراسات على المصادر الأصلية فما وافق منها ثوابتنا الإسلامية أخذنا به وأقررناهم عليه ، ودعونا الناس إليه ، وما لم يوافق ضربنا به عرض الحائط وطرحناه وراء ظهورنا .

سابعاً : كما يجب أن تخصص المؤسسات العلمية والأكاديمية في كل بلد إسلامي هيئة مكونة من علماء متخصصين في شتى فروع الثقافة الإسلامية ومن علماء متخصصين في معرفة اللغات المختلفة معرفة تامة ، وفي معرفة الغرب ورجاله ، ولهم في نفس الوقت عناية خاصة بالدراسات الاستشراقية ثم يجتمعون على ترجمة كتب المستشرقين الخاصة بالإسلام وتاريخه أولاً ثم المتعلقة باللغة وآدابها والاجتماع ثانياً – لترجمة مؤلفاتهم عن الإسلام وبيان ما فيها من حق أو باطل ، وبيان موقف الإنصاف من موقف الانحراف في كل كتاب ، ثم الرد على ما يستحق الرد من ذلك رداً علمياً محكماً متيناً ، ونشر ذلك كله باللغة العربية لتعم الفائدة لجميع الأوساط العلمية وتتضح الحقائق ، والثوابت الإسلامية لكل الناس [2] .

ثامناً : لابد من إعداد ترجمة مقبولة وأمينة لمعاني القرآن باللغات الحية نسد بها الطريق على عشرات الترجمات المنتشرة الآن بشتى اللغات ، والتي قام بإعدادها المستشرقون ، وصدورها في غالب الأحيان بمقدمات مملوءة بالطعن على الإسلام ، ولا بد أيضاً من اختيار مجموعة كافية ومناسبة من الأحاديث النبوية وترجمتها لتكون مع ترجمة معاني القرآن في متناول المسلمين غير الناطقين

(1) المرجع السابق ، ص ٣٠ ، بتصرف يسير .

(2) انظر : الإسلام والمستشرقون ، ص ١٨٤-١٨٥ ، تأليف نخبة من العلماء المسلمين نشر عالم المعرفة ، جدة ، السعودية ، ١٩٨٥م ، بتصرف . وانظر : الإسلام و الاستشراق ، ص ٣٠-٣١ ، د / زقزوق .

بالعربية ، وفي متناول غير المسلمين الذين يريدون فهم الإسلام من منابعه الأصلية .

تاسعاً : مطلوب أيضاً أن تقيم كل جامعة من مجتمعات الأمة الإسلامية معهداً للدراسات الاستشراقية – يمنح الدارسون في هذا المعهد درجات علمية وعالمية ، وقد لا يتصور المرء أن الأمة الإسلامية وقد تعددت جامعاتها المختلفة – لم تعمل بعد على إنشاء معاهد أو أقسام للدراسات الاستشراقية – في حين أننا نجد أنه ما من جامعة في أوروبا أو أمريكا إلا وملحق بها معاهد وأقسام لدراسة الإسلام والمسلمين – حتى أصبحنا بحركاتنا وسكناتنا واقعين تحت سيطرة وأقوال وآراء المستشرقين (1) .

صحيح أن هناك بعض المناهج التي تدرس مادة الاستشراق في بعض المراحل الجامعية – لكننا نرجو المزيد من الاهتمامات العلمية في هذا المجال .

والخلاصة :

أنه بمثل هذه الجهود وغيرها نستطيع مواجهة الاستشراق مواجهة حقيقية تبطل كل دعاوى المستشرقين عن الإسلام ، وتكشف للعالم كله المفاهيم الصحيحة ، والصورة الواضحة عن الإسلام ، وهذه الأعمال والواجبات العلمية يمكن أن نتصدى بحزم وحسم للتحديات التي تواجه أمتنا الإسلامية ، وبمثل هذه الخطوات نستطيع أن نكشف في وضوح عن أن جهود المستشرقين لا تستند على حجة ولا عقل ولا منطق بل هي جهود مفروضة الهدف منها النيل من الإسلام وأهله ، وقد اتسمت هذه الجهود عند المستشرقين بالكذب والافتراء والمغالطة ، ومن يتصفح كتب المستشرقين وموسوعاتهم ودوائرهم يجد مئات من الاتهامات والأباطيل ، وآلاف التخريجات التي لا صلة لها بالعلم.

وإذا كان المسلمون اليوم يرون أنهم في صحوة إسلامية ، ووعي إسلامي فإن من مبادئ تلك الصحوة وأولياتها : مواجهة الاستشراق والمستشرقين على هذا النحو الذي بيناه آنفاً ، لأن امتنا تتطلع إلى غد مشرق ، وهذا التطلع المأمول يحتاج إلى علم وعمل وجهود بناءة تكون علامات مضيئة على الطريق، ويبقى دائماً وأبداً دور المسلمين في الكشف عن طبيعة الاستشراق ، والتعريف بالمتغيرات التي تطرأ عليه ، ومتابعة أعماله في الدراسات الإسلامية ، وتوضيح أخطائه ، وتقويم مناهجه ، ويبقى أيضاً دور العلماء في تقديم الإسلام وحضارته إلى الغرب والعالم كله من خلال التطبيق العلمي والعملي للجهود التي سجلناها على صفحات هذا البحث.

وبالله التوفيق

(1) الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي ، ص ٧٤ ، د / أحمد عبد الرحيم السايح ، بتصرف .

الخاتمة

وبعد فقد ثبت من خلال هذه المحاولة العلمية : أن الاستشراق كحركة معادية في أصلها للإسلام – لم يكن لأجل العلم الصرف ، ولا لخدمة الإنسانية كما يزعم المستشرقون القدامى منهم والمعاصرون، ومن ثم كان لا بد لنا نحن المسلمين من التعامل مع دراسات المستشرقين بالحيطة والحذر، واليقظة المتناهية حتى بالنسبة للدراسات الغربية التي اشتهرت بالموضوعية والأنصاف لأن ضررها أكثر من نفعها إن كان فيها نفع .

كما اتضح لنا : أن الاستشراق في حالته الراهنة من أخطر التحديات المضادة للإسلام فما عرف التاريخ الإنساني عبر مراحله المتباينة – طوائف من البشر – من أمثال هؤلاء المستشرقين – تنوعت ثقافتها ولغاتها وأعراقها – التقت كلماتها، واتحدت أهدافها وغاياتها حول العكوف والإصرار على دراسة دين لا تؤمن به، ولا تريد من وراء ذلك معرفة الحق من الباطل، وإنما تريد العمل دون كلل ولا ملل من أجل تشويه صورة الإسلام، وحضارته الإنسانية الرائعة . مما يؤكد على أن تيار الاستشراق لا يزال يندفع بقوة منذ أن باءت الحروب الصليبية بالفشل، وهو في اندفاعه لا يحمل إلا الغثاء والزبد الذي يذيع بين المسلمين الفساد والضرر، وقد ينتهي بهم إلى غربة كاملة عن دينهم – والعياذ بالله – ما لم يقفوا أمامه سداً منيعاً، وحصناً حصيناً يحول بينهم وبين ما يسعى إليه ، وتكون العاقبة الحسنى للمسلمين ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

هذا – ومن خلال المعالجة العلمية لموضوع هذا البحث – أود أن أوضح بعض النتائج التي توصلت إليها زيادة على ما سبق، وذلك على النحو التالي :

أولا : بطلان ادعاء بعض المؤسسات الاستشراقية، وما يروج له بعض المستشرقين من أن عصر الاستشراق قد انتهى، وأن صفحته قد طويت حيث إن حركة الاستشراق لا تزال قوية متماسكة، ولا يزال المستشرقون يتوافرون على دراسة الإسلام والمسلمين، ولا تزال حملاتهم المغرضة، وافتراءاتهم الظالمة، وشبهاتهم الباطلة مستمرة في الطعن والتشويه

(1) سورة يوسف : ٢١ .

المتعمد للإسلام، ولا تزال معاهد الاستشراق تعمل في الوقت الراهن، وتخرج أجيالاً متلاحقة من المستشرقين في أغلب جامعات الغرب، ومن ثم فليس هناك بارقة أمل توحي بأن شمس الاستشراق تدنو للمغيب، وأن نجمه بدأ يقترب من الأفول .

ثانيا : لا يعني تغيير مسمى الاستشراق نهاية حركته، أو توقف المستشرقين عن توجيه سهامهم المسمومة نحو الإسلام وحضارته، كما لا يعني تغيير مسماه إلى (دراسة العلوم الإنسانية) لا يعني ذلك التخلص من طابع الروح العدائية التي لازمت الاستشراق في شتى مراحله. بل – الذي تغير فيه هو جلده فقط، ليلبس عباءة أخرى وليتحول عن طريقها إلى مرحلة جديدة أشد وأخطر من ذي قبل .

ثالثا : ومن النتائج التي توصل إليها البحث أيضاً : أنه مهما اختلف المنحى، أو تغير الأسلوب عند المستشرقين – فإن المنهج الذي سلكوه في دراستهم للإسلام – لم يسلم أبداً – من كونه مجافياً لما يقتضيه المنهج العلمي الصحيح من موضوعية، وإنصاف وبعد عن التعصب والهوى في كثير مما تركوا من دراسات تتسم جميعها بالقصور في البحث وعدم الاستيعاب، والبعد عن الصواب، وعدم الاعتراف بالحقيقة المجردة .

رابعاً :تبين من خلال هذا البحث: أن الاستشراق حركة فكرية متشعبة الاتجاهات، شملت مناطق متعددة من العالم، وركزت على العالم الإسلامي بخاصة، ووجهت اهتماماتها نحو الإسلام واللغة العربية ، ومن ثم جاءت كتابات المستشرقين عن الإسلام تتراوح بين الجهل التام، والمعرفة الموجهة بين الإسفاف الشنيع، والموضوعية المشوهة ، بين الافتراء الواضح، والإنصاف المزعوم، مما يستوجب على المسلمين مواجهتها مواجهة علمية دقيقة، بأساليب مجدية، ووسائل فعالة، ومنهج علمي محكم يحيط بأبعاد القضية، ويناقشها بروح علمية موضوعية .

خامسا : دأب معظم المستشرقين في كل ما كتبوا عن الإسلام – دأبوا على بعث الثقة لدى المسلمين بالظهور أمامهم بمظهر الباحث عن الحقيقة فعلاً، وقد اثبت البحث عكس ذلك تماماً- بضرب بعض الأمثلة والنماذج من المستشرقين الذي تزيوا بزي الموضوعية العلمية ، وهم من ذلك خواء تماماً.

سادساً : كذلك من النتائج التي انتهى إليها البحث : وجوب الالتزام بمنهج الإسلام في الحوار والمجادلة والمناقشة مع المستشرقين على اختلاف مللهم ونحلهم – لدفع شبهاتهم والافتراءاتهم حول الإسلام – كما علمنا القرآن الكريم، وطبقه الرسول ﷺ ، وكما سار على ذلك سلف الأمة الصالح، وقد بنى هذا المنهج في أبسط قواعده وأصوله على مراعاة العدالة والإنصاف والمجادلة بالتي هي أحسن . قال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [1] ، وقال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[2].

ومهما كانت النتائج التي أثمر عن هذا البحث – فنحن لا نطالب المستشرقين أن يكونوا مسلمين قبل أن يدرسوا الإسلام دراسة منصفة ، ولكننا نطالبهم فقط أن يكونوا موضوعيين ، وصادقين في كل كلمة ينشرونها عن الإسلام، وأن يلتزموا بقواعد الأمانة العلمية التي لابد من مراعاتها في أي بحث علمي، ولو أنهم فعلوا ذلك لأصبح كثير منهم مسلمين، وذلك لأن الدراسة الأمينة كما حدث فعلاً في الغرب في حالات كثيرة بين المستشرقين الذين هداهم الله إلى الإسلام من أمثال : محمد أسد ، واللورد هيدلي، وإبراهيم خليل أحمد، وغيرهم ممن اعتنقوا الإسلام .

ومن ثم يرى بعض الباحثين المعاصرين: " أن المستشرقين في الحقيقة ليسوا مؤهلين لدراسة الإسلام دراسة علمية على الإطلاق، وذلك لأنهم تجردوا من أهم شروط الموضوعية، ومن هنا اتخذوا موقفاً مسبقاً عن الإسلام هو موقف العداوة له والتعصب ضده، والبغض لكتابه (القرآن الكريم) والحقد على رسول صلى الله عليه وسلم والكيد لأهله، ومن ثم فلا يمكن لأي إنسان أن يكون موضوعياً في دراسة موضوع يشعر نحوه بالعداوة والكراهية، كما لا يتصور أن يكون الدارس للإسلام موضوعياً، وهو ظهير للاستعمار، ومشتغل بالتنصير،

---

(1) سورة العنكبوت : ٤٦ .

(2) سورة النحل : ١٢٥ .

ومؤيد للصهيونية ، ومساند لدول الغرب على الإسلام والمسلمين " [١] .

– وعلى أية حال – فإننا نطالب المستشرقين – إن لم يؤمنوا بالله ورسوله ﷺ – ألا يفتروا على الله ورسوله الكذب. كما زعموا أن القرآن شعر، أو أنه مستمد من كتبهم المحرفة، وكما زعموا أن الرسول ﷺ – ليس إلا مصلحاً اجتماعيا لبيئة واحدة هي بيئة الصحراء في القرن السابع الميلادي .. إلى آخر تلك المزاعم والافتراءات التي لا تصدر عن أي إنسان كرمه الله بالإنسانية، فضلا عن أن يكون باحثاً يدعي العلم والموضوعية .

وبعد

فلعل هذه الأضواء واللمحات التي قدمتها على صفحات هذا البحث – لعلها تكون حافزاً قوياً للعمل الجاد على تحقيق ما تتأكد الحاجة إليه في هذا العصر من ضرورة التقويم الإسلامي لدراسات المستشرقين، والرد على ما فيها من شبهات أو مطاعن دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، وهذا غيض من فيض ، وقطرة من بحر – أسهمت بها في هذا البحث الموجز، وهي في الواقع مجرد محاولة يسيرة عسى أن تكون صالحة في معالجة هذا الموضوع الذي نال الكثير من جهود العلماء والباحثين في الفكر الإسلامي المعاصر – معترفاً بأن ما تركته أعظم مما كتبته . لكن ما لا يدرك كله لا يترك جله أو كله، وأسأل الله أن يوفقنا جميعاً لصالح الأعمال، وأن يهدينا إلى طريق الهدى والرشاد، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [٢] ، وصل اللهم على سيدنا ونبينا وشفيعنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وكتبه الدكتور

محمد عبد العزيز محمد عوض

الأستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية أصول الدين بالقاهرة

جامعة الأزهر

تحريراً في يوم الجمعة ٢١ / ٣ / ٢٠٠٨م

---

(١) انظر رؤية إسلامية ، ص ١٨٢ ، د / أحمد عبد الحميد غراب ، بتصريف ، مرجع سابق .

(١) سورة هود : ٨٨ .

ثبت بأهم المراجع

– القرآن الكريم .

١-أوروبا والإسلام ، د / عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٦م ، دار المعارف بالقاهرة .

٢-إنتاج المستشرقين وأثره على الفكر الإسلامي الحديث ، مالك بن نبي ، طبعة أولى ، ١٣٨٨هـ – ١٩٦٩م ، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

٣-أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، د / علي محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق ، طبعة دار الاعتصام .

٤-أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر ، د / محمد خليفة حسن ، طبعة سنة ١٤٢١هـ–٢٠٠١م ، طبع ونشر الإدارة العامة بجامعة الإمام محمد بن سعود ، الرياض .

٥-انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه ، محمد فتح الله الزيادي ، طبعة أولى ١٤١١هـ – ١٩٩٠م ، دار ابن قتيبة للنشر والتوزيع، بيروت .

٦-الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين ، د / شوقي أبو خليل ، طبعة أولى ١٩٩٥من ،نشر دار الفكر المعاصر، بيروت ، لبنان .

٧-الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، د / محمود زقزوق ، طبعة أولى ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م ، كتاب مجلة الأمة بدولة قطر .

٨-الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، د / مصطفى السباعي ، طبعة رابعة ، دار الوراق بدمشق ، سوريا .

٩-الاستشراق والدراسات الإسلامية ، د / محمد علي إبراهيم النملة، طبعة أولى ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م ، مكتبة التوبة بالرياض ، السعودية .

١٠- الإسلام والمستشرقون ، تأليف نخبة من العلماء المسلمين طبعة أولى، ١٩٨٥م ، نشر عالم المعرفة ، جدة، السعودية .

١١- الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي ، د / أحمد عبد الرحيم السايح ، طبعة أولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م ، نشر الدار المصرية اللبنانية، القاهرة .

١٢- الإسلام والقوى المضادة، د / نجيب الكيلاني ، طبعة أولى

١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م ، الزهراء للإعلام العربي .

١٣- الاستشراق المعاصر في منظور الإسلام ، د / مازن بن صلاح مطبقاني ، طبعة أولى ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م ، دار اشبيليا للنشر والتوزيع بالرياض ، السعودية .

١٤- الاستشراق في الميزان ، د / منذر معاليقي ، طبعة أولى ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

١٥- الاستشراق ، د / إدوارد سعيد ، ترجمة : كمال أبو ديب ، طبعة ١٩٨١م ، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت .

١٦- الإسلام على مفترق الطرق ، محمد أسد ، ترجمة : د / عمر فروخ ، طبعة ١٩٨٧م نشر وتوزيع دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .

١٧- الإسلام كبديل ، د/مراد هوفمان ، طبعة ثالثة ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م ، نشر وتوزيع مكتبة العبيكان بالرياض ، السعودية .

١٨- الإسلام و الاستشراق ، د / محمود زقزوق ، طبعة أولى ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م ، مكتبة وهبة بالقاهرة .

١٩- الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ، د/ قاسم السامرائي ، طبعة أولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، دار الرفاعي للطباعة والنشر والتوزيع بالرياض ، السعودية .

٢٠- الإسلام في مواجهة أعدائه ، توفيق علي وهبة ، طبعة أولى ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م ، دار اللواء للنشر والتوزيع بالرياض ، السعودية

٢١- الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين ، لأبي الحسن الندوي ، طبع ثالثة ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

٢٢- تاريخ الشعوب الإسلامية ، للمستشرق بروكلمان ، ترجمة : نبيه أمين ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، الطبعة التاسعة ١٩٨٠م، بيروت .

٢٣- التبشير والاستشراق ، المستشار محمد عزت الطهطاوي ، طبعة أولى ١٤١١هـ – ١٩٩١م ، الزهراء للإعلام العربي .

٢٤- حضارة العرب ، جوستاف لوبون ، ترجمة : عادل زعيتر ، طبعة ١٩٦٩م ، نشر دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة .

٢٥- دراسات في الاستشراق، د / علي علي شاهين ، طبعة أولى ١٤١٢هـ –١٩٩٢م ، دار الطباعة المحمدية بالأزهر ، القاهرة .

٢٦- صحيح الإمام البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى .

٢٧- رؤية إسلامية للاستشراق ، د / أحمد عبد الحميد غراب ، كتاب المنتدى الاقتصادي ، طبعة ثانية ١٤١٨هـ ، الرياض ، السعودية .

٢٨- العقيدة والشريعة في الإسلام ، للمستشرق جولد تسهير ، ترجمة د / محمد موسى وآخرين ، طبعة ١٩٤٦م ، دار الكتاب المصري بالقاهرة.

٢٩- الغزو الثقافي للأمة الإسلامية بين ماضيه وحاضره ، منصور بن عبد العزيز الخريجي ، طبعة أولى ١٤١٢هـ ، دار الصميعي للنشر والتوزيع بالرياض ، السعودية .

٣٠- فلسفة الاستشراق ، د / أحمد سمايلوفيتش ، طبعة ١٩٧٣م ، دار المعارف بالقاهرة .

٣١- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، د / محمد البهي ، طبعة ثامنة ١٩٧٥م ، نشر وتوزيع مكتبة وهبة بالقاهرة .

٣٢- لسان العرب ، لابن منظور ، طبعة دار المعارف بالقاهرة .

٣٣- لمحات في الثقافة الإسلامية ، للأستاذ عمر عودة الخطيب ، الطبعة الثالثة عشر ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، سوريا .

٣٤- موقف المستشرقين من السيرة والسنة النبوية ، د / أكرم ضياء العمري ، طبعة ١٤١٧هـ – ١٩٩٨م، مركز الدراسات والإعلام ، دار أشبيليا ، الرياض .

٣٥- مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية ، طبعة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ، طبع ونشر مكتب التربية العربي لدول الخليج بالرياض .

٣٦- المستشرقون والسنة النبوية ، د / عماد الدين خليل ، طبعة

سنة ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة.

٣٧– المستشرقون ومشكلات الحضارة ، د / عفاف صبرة ، طبعة ١٩٨٠م ، دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة .

٣٨– المستشرقون والإسلام ، إبراهيم اللبان ، ملحق مجلة الأزهر ، طبعة ١٩٧٠م ، القاهرة .

٣٩– المعجم الوجيز ، إصدار مجمع اللغة العربية ، طبعة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م ، بالقاهرة .

٤٠– نحو ثقافة إسلامية أصيلة، د / عمر سليمان الأشقر ، الطبعة الثانية عشر ، ١٤٢٢هـ–٢٠٠٢م ،الكويت.

****

****

****

فهرس الموضوعات